ABU ABDO ALBAGL

ذاكرة الرماد

رواية

ابتسام التريسي

دار الحوار

- ***ذاكرة الرماد***
- ابتسام إبراهيم تريسي
- جميع الحقوق محفوظة للناشر©
- الطبعة الأولى 2006
- ***النـاشـر : دار الحـوار للنشـر والتـوزيـع***

سـورية ـ اللاذقيـة ـ ص. ب : 1018

هاتف وفاكس : 963 41 422339

البريد الإلكتروني : Soleman@scs-net.org

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

تصميم الغلاف : ناظم حمدان

❁ ❁

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

❁ ❁

ابتسام إبراهيم التريسي

ذاكرة الرماد

دار الحوار

ما يشبه الإهداء

عادت حروفك من تشييع جسدك

أودعته التراب،

ارتدت ثوب ألقها، وبدأت المعركة.

أنت اخترت الريح نداً لك ،

وهي قبلت التحدي ،

نسفت جسدك أشلاء ،

لكنّها عبثاً تطعن حروفك.

عبثا تقتلع أوتاد خيامك، عبثاً تحاول أن تخرس نبضك

ها أنت تنهض من رمادك،

تغمس ريشتك في دم الأفق ، وترسم فوق الزرقة سفنك ،

تنثر فيها ارتعاشك

وأحلاماً لا تموت.

أوراقك المستقرة في حضني باطمئنان من وصل بعد ليلة عاصفة إلى الشاطئ، قالت لي في ليلة واحدة كل شيء.

1

أبدأ مشواري اليومي صوب البحر.

عيناي تتصفحان الأفق المدمّى، ورائي يربض المخيّم هادئاً، يحتضن جروحه الباردة.

تتكاتف بيوته حاضنة أمسي بآماله العريضة!

منذ زمن لم تنبثق ندى كزهرة بيضاء فوق سطح الماء، منذ زمن لم أرها ترتعش فوق الزبد وتغيب في حضن الموج. أحقاً أحببتُها..؟

وتلك التي أقفرت دروب الروح منها؟ تلك التي أوجعت نبضي حد الهوس والموت، أأصبحتْ سراباً؟ تطلع من أمْسي الدافئ، تخطو نحو حزني، تمسح الدمع العالق بالهدب، وتغمض عينيها فأرى خلفهما بيتاً وحقلاً و....، كانت تدعوني دائماً لأقف في مواجهة الريح، وكنت أصرخ: (الأحلام توجعني) تحدّق في الزرقة بلا كلل، تغرغر

ضحكتها بموسيقى مشبعة بالوعود، تغريني بعبور البحر إلى ضفتها القاطنة في القلب.. صرت أشكّ أنّها أوهام!

أكانت حقاً مجرد أوهام خدّرت حواسي، حتّى عبورهم؟

بين وهم وآخر تعبر ندى أفقاً مضرجاً بشقائق النعمان لتحفر أقنية لفرح مرصود.

أحقاً أحببتُها؟

لن يتوقف سيلها في داخلي عن اقتلاع أعشاب الطريّة بأسنانه الحادّة، (هي لا تعرف؟) زفرتُ أنفاسي المحترقة من صدري المسكون بالرماد، (هي لا تعرف شيئاً عن انكسار الحلم، وجمع الجمر تحت رمادي! لو كانت ندى لي في ذاك الزمن، أكنت أقف عند شاطئ ذكرياتي الآن مذبوحاً بسكينٍ صدئة؟ أكانت دمائي الجافة تبعدني عنها مسافات من العهود التي قطعتُها على نفسي بأخذ ثأر يستحوذ على حواسي؟ لكن هل تحوّلت قضيتي إلى ثأر شخصي!؟

الشمس تذكّرني بحضور النار، أرفعُ رأسي إليها، هكذا شمس حزيران قاتلة دائما.. لا بدّ أنّي أهذي!.. بين هذياني وأمواجه التي تضرب الشاطئ برفق يكمن الصحو، بين هذياني وخفقان القلب، تتكوّم الحقيقة مذعورة من حيادي، أأنا حيادي حقاً؟

كيف لي أن أصل إلى قناعة تخرجني من هذه الدوّامة؟

زفرتُ حيرتي مرّة أخرى، سأترك الأمور كما هي.!

ندى أشعلت حرائقها وتركتني على حافة الأرق والخوف، رمت لي شِباكاً مليئة بالأصداف الملوّنة، وعيناي تعودتا الرماد!

منذ متى لم تبحر عيناي في تضاريسها الشهيّة التي تعتقل روحي قبل أن ترمي بجسدي في زنزانة متعتها؟ منذ متى لم ترتعش يداي فوق مقصلة حادّة، ينفر دمي بعدها طريّاً مريحاً؟ لم أكن يوماً أعتقد

أنّ هناك أنثى في هذا الكون ستفجر براكيني الخامدة بعنف، هل هذه المرأة حقيقة؟

أتأمل المتوسط، تغتالني الزرقة وهي تلمع بوهج الشمس الّتي توسطت السماء، من جديد يعاودني الشعور بالهزيمة، أحياناً ألوم نفسي لدخولي دوّامة التنظيم، ثمّ لا ألبث أن أبصق عليها ساخراً (أتريدهم أن يسموك بصفة الجبن أم الخيانة؟ هل تخشاهم أم تخشى نفسك؟ أم أنّ رغبتك بالثأر طغت على رغبتك بالحياة والحب؟) كثيراً ما تساءلتُ: ما الحكمة من تعارض رغباتي تلك؟ لماذا وضعتُ في مأزق هذه التناقضات المرّة؟

أنهض، ترتدّ الشمس بحرارتها القاسية عن رأسي وأنا أخطو في أزقة المخيّم؟

يتسع الزقاق بألفته، تمتدّ غابات الصنوبر والبلوط ملوّنة بأطياف ساحرة، يتألق الماء شفافاً، أمدّ يدين ملهوفتين، قطراتٌ باردة تردُّ روحي إلى الجسد، أنتشي بفعل الماء، أم بسحرها؟

يداها موجة عطر تتنسم (موضع الحمام) * وتنثر فوق رأسي عبيرها، ما أتعسني! كيف لي أن أحب ندى؟ وتلك الّتي تحملُ مفاتيح الأمل لأبواب الانتظار.. هل أصبحت مجرد ذكرى باهتة لزمن لم تعد ملامحه واضحة في الذاكرة؟

أسند يديّ إلى الجدار، ترضعان بعض البرودة منه، أتنسم رائحتها، تفاصيلها، أزقتها، ويتلاشى قلقي!. ذات قهر طرقت بابي ليلاً، داعبت بنظراتها وجهي، ودغدغت حلماً ساكناً تحت جلدي، التصقتُ بها، تبددت كسراب، عند الزاوية المعتمة احتويتها بقوة، هذه المرّة اقتنعت أنّها الحقيقة الوحيدة في حياتي، كانت تضاريسها ترحب بفتوحاتي، وتشتهي صهيلي. ارتميت على أقدامها. أكانت

إغماءة تلك التي حملتني إلى عشبها لأضّجع عليه؟ كلّ فتوحاتي تنتهي بخيبة، كلّها تنقلني إلى حلم مهزوم.

أنقل خطواتي بوهن داخل العتبة، أتجاوزها إلى الغرفة الضيّقة، ألقي بجسدي المنهك فوق فراشٍ لم آلفه طوال هذه السنين التي عشتها تحت سماء بيروت قرب المتوسط.

أسمع صوت أمي يناديني بدفئه ملهوفاً: (ما بك؟ ماذا حدث؟) ماذا حدث؟ تردد صدى السؤال في أعماقي، زحف موجعاً إلى دماغي. أمدّ يداً عاجزة لألمس طيفها، لا أقبض غير السراب. هي الأخرى غادرتني، لماذا يرحلون تباعاً تاركين حياتي قفراً من إلفتهم؟ لماذا يتركونني وحيداً أواجه أمْساً مرعباً، ومستقبلاً لا يحمل غموضه سوى شبح الموت؟ وهل أنتظر سواه؟

هذياني يرفض ما توصلت إليه، لا، ليست هذه الحقيقة، أسخر من نفسي، هل هناك حقائق ثابتة؟ حتّى الموت حقيقة نسبية؟ لا، بل الموت هو الحقيقة الوحيدة الثابتة في وجودي، الموت وحده لا يحتمل تأجيلاً ولا تسويفاً ولا مراوغة.. وندى؟

يعاودني حضورها المتحفز دائماً لشجار، هل قلتُ لها إنّي أحبها؟ أين الحقيقة في هذا؟

أضحك بصوت عال، لماذا أبحث عن الحقيقة؟ قد أحبها، وقد أتركها، قد تأتي، وقد لا أراها.. ماذا؟ أتوقف قليلاً عند أفكاري اللامبالية تلك، ولماذا لا أسعى للقائها؟.

لن يحدث ذلك أبداً، اللعنة على...، وما ذنبها إن أحبتني؟

أنفض رأسي من الأسئلة المحيّرة، لا داعي لفهم أمر لم يحدث بعد.

أستدير يميناً، أواجه الجدار، أبحث في شقوقه الرطبة عن فكرة مستحيلة ركبت دماغي فجأة (هل يمكن أن أعود؟). ترتعش يدي والمفتاح يلج ثقب باب لا يملّ الانتظار!

تدفعني يد أمي بحنان (كم مرّة نبهتك، لا تلعب مع البنات، الرجال للسلاح، وأنت أصبحت رجلاً.!) رجل!.. في الحادية عشرة كانت أمي تستنفر رجولتي لترى فيّ زوجاً فقدته وأخاً استشهد في الجنوب، وآخر ابتلعته المحيطات في غربة طويلة ولم تعد تسمع عنه شيئاً، كانت تصرّ على العودة إلى هناك حيث تركت إبرتها ونسيجها، وصور صباها على الجدران! كانت تنسج أحلامها بتفاصيلها الصغيرة، وتلبسني إياها دافعة بي إلى اقتحام المجهول الذي خاضته منذ دهر وهي تعبر البحر على مركب صغير إلى اللاذقية. (لقد أصبحتْ يدك قادرة على حمل السلاح) فاجأتني يوماً أحمل أقلاماً ملوّنة، أرسم أفقاً أزرق ودالية عنب، تأملتْ الورقة مقطبة جبينها (أين البندقية؟ هل هذا الرسم يعبّر عن رجولتك؟) بكلّ برود مزّقتْ الورقة ورمتها في سلة المهملات، خرجتْ من الغرفة بعد أن رمتني بنظرة محذرة، شديدة اللهجة. ركضتُ حيث مزّقي، لملمت أشلائي، وخططت بيد مرتعشة اسمها تحت الدالية، وطويت النتف الصغيرة، وألقمتها البحر ذات مساء دافئ، وعدت إلى فراشي قابضاً على يقيني بوصولها إلى شاطئ الحلم الذي برعت أمي في وصفه حتّى صرت أراه بين الجفن والحدقة!

لكنّ النهار أشار إلى خيبتي مشاكساً، شوّهت المياه المالحة الدالية، ورمت بها على صخرة مرتفعة جففتها الشمس وحملتها الريح لترميها على الرمال الساخنة، فتلقفتها أيدي الفتيات العابثة.

ضحكت أكبرهن وهي تخطر في زقاق المخيّم بين رفيقاتها، وغمزت تجاهي وهي تعيد تمزيق الورقة ببرود، الخجل قرض أذنيّ بحمرة قانية، ركضت نحو الشاطئ، ركضت بكلّ قوتي، وانبطحت فوق الرمال باكياً.

يشجّ سؤالٌ متطفلٌ رأسي: أأحببت ندى لشبهٍ بينهما؟

تقطع ندى دائماً حضور الماضي، لماذا؟ أنا السبب، أنا من ترك ندى تنسف ذكرياتي بحضورها، أرتعد، لا، لن أسمح لها بفعل ذلك. ندى جاءت من عالم آخر يختلف عن عالمي، عالمٌ غارقٌ في حياده وترفه، فهل أستطيع الخروج من محيطي إلى شواطئها!؟

يرتسم فوق الشقوق الأليفة وجهها.

عبروا فوق جثتها، تركوها في الركن الخفيض، مذبوحة من الوريد إلى الوريد.

عبروا... اجتاحوا أحلامي في مهدها، قطّعوها أشلاء، الدماء تسيل أمام عينيّ، الدماء تصبغ بياض القميص، الدماء!

تتوقف يدي الّتي ترضع برودة الجدار عند حروف باهتة بقلم رصاص، طلاسم يحفظها قلبي جيداً، ألوانٌ لا يمكن لحضور ندى أن يطغى على ألقها.

أمي كانت تراقبني بحذر، قلبي الغض يسأل بخفقاته المضطربة : تراها تعرف؟

أمي تعرف كلّ شيء، بمجرد نظرة في عينيّ تعرّي خوفي، وتكشف أسباب قلقي، أمي كانت امرأة مختلفة عن الأخريات. أحياناً كنت أشعر أنّها أضخم من شجرة سنديان، وأقوى من عاصفة، وأحياناً كانت أذناي تلتقطان ليلاً صوت نحيبها المكتوم، وشهقاتها المتلاحقة،

فأخاف من ضعفها. لكنّ الصباح يكشف قامة مديدة، وعينين صاحيتين، وتقطيبة محذرة، فأتساءل عن مواسم الجفاف والمطر!

أيمكن أن أحب ندى؟ وكيف سبق لساني تفكيري حين قلت لها (أحبك؟)؟ أكان ذلك لأنّها مدّت لي جسر عبور إلى دنيا لا تجلس القرفصاء على كف عفريت؟ بل لأنّها أحبتني، هذه حقيقة ثابتة أخرى!! أأجسر على اليقين بأنّ حبّها حقيقة؟ الأشياء تأخذ من حولي طابعاً هلامياً رخواً، تستنفر أعصابي ساكبة المزيد من العرق البارد على صدر يعتصره ألم وحب وتناقضات لا تنتهي، ويظلّ سؤالي المريع متمدداً في أروقة دماغي: أيعقل أن يكون ذلك وهماً؟ مجرد وهم!

♦♦♦

أخلّف البحر ورائي، أصعد نحو المخيّم، أتجاوزه دون التفاتة، حين أصل جسر الكولا يفاجئني الازدحام الغريب، لا ألقي بالاً لما يجري حولي، حادث يومي، روتين لم يعد له معنى، تجرّني غربتي بعيداً، تلهث خطاي تجاه هدف غامض، أتعثر بزمن كئيب ما زال قائماً أمام عينيّ، يرفد روحي بألم متجدد، وجسدي بحصار مرعب، قدماي تسوقانني في الطريق الصاعد دون توقف.

تقتحمني كعادتها دون استئذان، يتجلّى ألقها في روائح ياسمينة بعيدة تتكئ على باب خشبي، تسدل جدائلها فوق دالية ناضجة، كثيراً ما تساءلت: ما السرّ في خروج روح ماضيّ لتلبس جسدها؟ أكانت عشتار التي تطفئ قنديل الكروم، وتجتاح العالم السفلي بلا

عودة؟ لكنّ ندى حقيقة لمستها يداي، تتراءى لي ممتطية موج المتوسط، قادمة كمنارة في ليل لا ينتهي بشجونه.

أدور هابطاً الطريقَ المفزع إلى صبرا، تلك الرائحة المميزة تنسل من جلدي، أم هو المكان؟ تلك الصور المفجعة تتسرب من مخيلتي أشباحاً تتحرك صوبي ببنادقهم، أم هو المكان؟ تحاصرني جموعهم المشوّهة، تغطيها الدماء وتنبعث روائح الرعب، فيتيبس جسدي من جديد، تتقلص أصابعي ممسكة بأمعائي. دائماً يصافحني وجه الشيخ محمود على مفرق صبرا، يداه المتشبثتان بطاقية بيضاء، عظام صدره البارزة، أخاديد الزمن المر، وأسراب الذباب حول جثته المتصلبة. وتغزل صبية الحي الجميلة فاطمة بملابسها البيضاء حقدي الأبدي نقمة وتوتراً، أصرخ، لا يرجع الصدى!.

الزحام الصباحي يطلق عيون المارة المستغربة نحوي، يبتسمون لمجنون جديد لم يخرج بعد من ملابسه.

أنحرف شمالاً في الزقاق الضيّق. كانت هناك ملقاة على الطريق كوردة مهملة، ثوبها الأبيض ملطخٌ بالدم والغبار، تكنس الريحُ بقايا المجزرة، تضفرها حول جسدها فيبدو غارقاً في بحيرة من الرماد، كان رأسها هناك عند المنعطف!! نظرتها؟ لم تحمل إليّ عتباً ولا لوماً، لم تكن هناك عينان.! ولكنّي عرفت تفاصيل الأشلاء الّتي تخصها من إلفة الجوار سنوات طويلة!

هناك استلقت مريم، كانت تنظر إليّ نظره جامدة، ينضح جبينها المشع بأمومتها عرقاً أحمر، تعرف عيناها نظرة محايدة صوب الرضيع المستقرّ على صدرها، كانت أصابعها تمسك به، تضغطه قريباً من ... يلتصق بها، والرصاصة تخترقهما معاً.

تتابع خطواتي رحلةَ ألمها اليومي في الشارع البارد المحايد، يمتدّ الحائط الطري بامتداد جرحي، يمتدّ بثقل الأعضاء المدعّمة بالطين والغبار، يمتدّ بجواري، ملاصقاً وعيي، هل أستطيع النظر حيث تطلعت العيون إليّ يوماً مخبرة تفاصيل المجزرة؟

أفرُّ من رعبي الملتصق بنبضي، أفرّ، خطواتي اللاهثة تتوقف حيث كانوا، أيديهم المتشابكة تتحدى رعبي وتخاذلي، وأجسادهم مختلطة بالركام. خلف الباب الحديدي البني اللون كانت العذراء هناك مرمية بطلق ناري. عيناها مغمضتان، يداها مفرودتان، كأنّها تحتضن السماء، لم أرَ نظرتها، لكنّي تصورتُ ماذا تحت الجفنين المطبقين، فرّت روحي، لم تعد تحتمل حضورهم في الدرب اليومي لخطواتي، لم تعد تحتمل وجود الموتى يبسمون لي، وأنا أتابع حياتي بجثة لستُ متأكداً من حياتها!

دلفتُ غرفتي الكئيبة، على نفس السرير البارد رميت أوجاعي، تمددتْ الروح طلباً للخلاص، هاجمتني الصور المفزعة مرّة أخرى. أكانت مجرد صور لمذبحة رأتْ عيناي مخلفاتها؟ أم تاريخاً طويلاً من القهر والقمع ربض تحت جلدي متحفزاً لسلخه بسياط ذاكرتي الّتي لا تبرح أمسها؟ هدرت موجة في أعماقي، أهلي، أصدقائي، كانوا هناك، صلابتهم لم توقف المجزرة، واستمرّ حمّام الدم، حتّى طالهم جميعاً. ترتعش عروق يدي رهبة، هل عادوا إليها، هل قبضوا على الحلم بأرواحهم؟

لا زال العنب الأسود يعتصر رحيقه خمراً في حلقي، لا تزال الدالية بأوراقها الخضر تجتاح روحي، تشدّني إلى زمنٍ ليس للطفولة فيه أمكنة دافئة، بقايا ما تركوه من غابتي وأشجار السنديان والصفصاف، بقايا ما تركوه من الزيتون، حلم يتراءى لي عبر أفق يصنعه خيالي،

لا حقائق في صفحة تاريخي، حتّى الأرض أعتقد أحياناً أنّها ليست من حقّي، ليست لحظات ضعف تلك، لا، ولم أفقد إيماني يوماً، لكن لماذا؟ أتساءل، لماذا؟ القوى الخفية تتحرك لتجيب على سؤالي، القوة هي الّتي تجيب، أنظر إلى جسدي، أتأمل يديّ، أقف مقابل الحائط أدقّه برأسي، هل العنف هو الحل؟ كلّ الطرق إليها معبدةٌ بالجثث، والركام، والدماء.. تخوض قدماي في بحيرته اللزجة، وأشعر بدوار يسحبني نحو هاوية سحيقة، أمد يدي، ندى تجدف بقوة، وأنا أغوص، ندى تقترب دفقة صبح عطر، وأنا أغوص في ملح عنادي، الدم يصل عنقي، لهاثي يزداد، قوتي تضعف، أصرخ، لا أسمع صوتي، أحاول أن أنصت لدقات قلبي العنيفة، نظراتها رعب واستعجال، تقترب بمجدافها من بحيرتي، يتدفق الدم شلالاً عنيفاً يغرق صمتي، هدوء في قاع البحيرة، هدوء في الفجر القريب، هدوء يعبر الشارع برهبة، النافذة المفتوحة تحمل بعض أرق ليلي يذوب على حواف الفجر. الهدوء الغريب للعاصفة يستغرقني، أتحسس جسدي، أمسح وجهي، أقرّب أصابعي من عينيّ، أحدّق جيداً، أين الدماء؟ أنهض من رعبي، ويختفي وجه ندى في زحام أفكاري.

2

بتُّ أخشى أن يصبح حبكَ مرضاً، وأخشى اللجوء إلى الطبيعة مداوية قروحه وتشوهاته، روحي المشروخة تعاني انفصاماً حاداً وآلاماً صعبة، أحاول رفضك أحياناً، فتتلبسني حالة ذعر وغيبوبة، فلا أجد مفراً من الاستسلام، أعيد المحاولة علّي أخرج من جلدك وأنسلخ من

ثوانيك لأستوعب كتاباً بين يدي، لكنّي أجدك تتنفس في سطوره، تناقشني بجدية وكأنّك تعيش ((السجن والوطن)) الكتاب الذي آمل أن ينتشلني من حالة التحام غريبة ببحرك.

تمرُّ لحظات أشعر فيها أنّي لم أعد أنا، ما يحدث لي يخيفني إلى درجة بتُّ أخشى حقّاً أن يتحوّل حبك إلى مرض يتشبث بخلايا جسدي تحت تأثير فاجعة فراقنا!

في محاكمة محايدة لنفسي وجدتها مجرد جدار هش، تحطّم عند أول زوبعة حقيقية اجتاحت مدني، صديق لي في الجريدة فتح عينيّ على الحقيقة: (كنتِ قوية وصاحبة قرار، ماذا جرى لك؟ أصبحتِ مشوشة في عملك، أخطاؤك كثيرة، انتبهي لنفسك.) لا جدوى، أمام حضورك المستمر أشعر بقوة غريبة تجبرني على أن أكون حمقاء!

بعد فراقنا الأخير، فكّرت بأنّي قوية بما يكفي لنسيانك وفتح جرح آخر، لم تقلقني حقيقة ارتباطي بآخر، لكنّي شعرت برائحة الجريمة تنفذ من أصابعي كريهة قاسية، هل كنت مجرمة بحقّك وحق نفسي عندما حاولت ترويضها على حياة أخرى؟

هذا ما جابهتني هند به بهجوم واضح وجاد (أنت مجرمة).

تعجبت من كلامها، ألست مجرماً حين وأدت مستقبلاً لم يولد بعد من أجل الاستمتاع بلحظات انتهائي وانتهائك؟! لماذا نمارس هذا الاضطهاد على أنفسنا ونحن بكامل صحونا وقوانا العقلية؟ لو أنّك أطلقت مشاعرك من قفصها، لما دفعتني لاقتراف جريمة فراقنا، استسلامك المهين للذة الألم، ضغط على عنق علاقتنا بصلابة فلفظت أنفاسها عشقاً، لماذا نمارس سياسة القمع على أحاسيسنا الحلوة ما دامت هي الشيء الوحيد الذي نستطيع تحسسه بحريّة (ولو سرّاً).؟ يتسلل صوتك غامضاً رخواً مسكراً، يهمس قريباً من رعشتي (لا فائدة،

لن تكوني الصديقة الّتي توقف النزف في أعصابي، تصورتُ أنّك ستحتوينني كما أنا...!)

عندما بدأت أشعر بمدى احتياجي إليك، افترقنا.

عندما حوّلتك فجراً لسعادتي، انفصلنا! أوّل مرّة أحسّ أنّ سعادتي في ذلك الهدوء المتسرب من حنانك، ومن تلك اللحظات المشرقة الّتي نصمت فيها فنشعر أنّنا نفكر بشيء واحد، وأنّ نغمات قلبينا متحدة الدقات، وأنّنا روح واحدة في جسدين ملتحمين. عندما وعيت كلّ ذلك، هبَّ الإعصار ليقتلعك من جسدي ويتركني وحيدة.

الخميس 27 حزيران 1985 أوّل مرّة أسمعك تهمس: أحبكِ.

يومها شعرت أنّ الأرض تميد بي، وأنّ الرمال المتحركة تمتصني، وأسماك البحر تنهش أطرافي، لم أصدق أذني، كنت أريدك أن تكررها، لم تكن الفرحة وحدها، لم يكن الذهول، ولا الدهشة، كانت طعنة تهب الحياة! نثرتها بنفسجاً غضّاً فوق حقولي، تحممت بعطرها، وانتهيت بين يديك لأخلق من جديد، وأدركت كم أحبك، وها أنا ذي أدرك كم هو فاجع فراقنا! كلّ هذه الانهيارات الجليدية الّتي مزّقت قلبي، لم تقتله! دائماً ينشب عناده مسماراً في حلقي، شحيحة أيامه، جافة كنواة تمر، لكنّه يجلو وجه الصباح المعفر بالجوع ليراه نقياً، وقدماه لا تيئسان!

للمساء الساحر أصابع مغمسة بالموت، وعيناك تكمنان في مقابر موحشة، وتتساءلان عن لحظة الشروق! لا أنت تحصل على ما تريد، ولا الأيام تفتح لك نوافذ الفرح.

هند أكدّت لي أنّي لا أحسن الاختيار وإلا لقبلت بمدحت، فالزواج على حدّ تعبيرها شركة يهندسها طرفان متكاملان، يقرران مدى نجاحها. سخرت حينها من كلماتها تلك، وحافظت على

تقوقعي حول نفسي رافضةً الانفتاح على عالم رجلٍ آخر بعد تجربتي الفاشلة مع فضل، قراري النهائي ذاك نَسَفته عيناك اللتان رصدتا خطواتي بريبة وأنا في طريقي إلى الرملة البيضاء، ما الذي حدث عندما تأملتني بشكّ وأنا أطلب منك أن تدلني على الطريق إلى صبرا؟

لماذا تركتُ علاقتي بك تسير إلى الهاوية؟ وأنا أنحدر إلى موتي بمرارة وألم؟

3

دخلت بيروت من بوابتها الواسعة، بوابة الدم...

قرع سمعي الرصاص وأنا في طريقي إليها، عبرتُ المنعطف، قرأتُ لافتة الترحيب مطرزة ببقايا البارود والزجاج المتناثر.

في البداية لم أبالِ، كنت أعرف أنّ الجوّ الطبيعي لبيروت هو هذا المطر الدائم من البارود والقنص، قلت في سرّي: (كأنّه عرس) أجابتني رصاصة متطفلة بقسوة، مرّت محاذية ساقي، فأبعدتني المفاجأة أمتاراً عنها، حاولت الاستيقاظ من حلمي البشع:

ـ لا... لا أريد رؤية بيروت مرّة أخرى، بيروت ليست الطفلة الّتي عرفتها منذ ربع قرن، تلك كانت مضمخة بحناء العرس، وهذه مغسولة بالدماء.

مرّت سيّارة جيب عسكرية بقربي، عوت صفارتها، سمعت لها جرساً حزيناً، وأنين قتيل يتأرجح جسده تحت رأس نصف مقطوع، كتمت صرختي ((إنّه ميتٌ! منذ متى كان الأموات يصدرون أنيناً؟)) لبيروت قانونها الخاص، لبيروت نكهتها الغامضة الممزوجة بملح

المتوسط، تابعت سيري وأنا أفحّ بمرارة: ((أيقظوني من حلمي البشع، لا أريد رؤية بيروت، لا.. لا أريد.)).. أيقظني صوتٌ مرتعش من ذهولي، فتاة شابة تلعن الامتحانات التي اضطرتها لمغادرة بيتها في مثل هذا الوقت، وجدتني ملتصقة بها، ربّما لأنّي شعرت بالخوف ممزوجاً بالغربة، ولأنّي أيضاً اشتركت معها في لعن الظروف التي قادتني إلى هذا المأزق، وجعلتني أعيش حصاراً حقيقياً بعيداً عن سطور الروايات، والأفلام المشوّهة.

الموت يلوّح لي بذراع عنكبوتية سوداء مقيتة، أراه يقترب، تغزوني الهواجس والتصورات المفزعة، أتطلع في ساعتي، يا إلهي إنّها السادسة والنصف ولم يأت مدحت. سألتها لأكسر حاجز القلق:

ـ لم أنت خائفة؟ العمر واحد!

ودهشتُ من نفسي، الخوف كان يغزوني أيضاً، إلا أنّي تابعت مخادعة ذاتي:

ـ لن يدوم الحصار طويلاً، مجرد اشتباكات عادية وستنتهي، أليس كذلك؟

لم أدرِ أكنتُ أسألها، أم أسأل نفسي، تابعت هي وكأنّها تحدث نفسها:

ـ أهلي سيقلقون عليّ، إن كانوا في مأمن، قلبي يحدثني بشرٍ قادم.

حلّ الصمت، كلتانا لا تعرف ماذا تقول للخوف، ولا كيف تطرد القلق، ولا بأيّ شيء تحتمي من الرعب. مرّت سيّارة أجرة استوقفناها معاً:

ـ أليس بإمكاننا متابعة الطريق من هنا؟

وأشرنا نحو بيتها المحاصر. ردّ بمرارة:

ـ لا يا ابنتي، هناك حاجز في آخر الشارع، تدبري أمرك، الوضع خطر.

تبادلنا نظرة متسائلة، ولم تجد إحدانا الجواب، خيّم سكون عميق، استمرّ دهراً من الثواني القاتلة، أعقبته أغرودة طويلة لأنواع متعددة من الأسلحة، من يرقص على إيقاع القتل العشوائي؟! لعنت في سري زميلي المصور الذي اختلس من قدره لحظات لشراء شطائر قد لا تستقرّ في معدته! إلى متى سأبقى واقفة على حافة الموت أنتظر مجنوناً ربّما يتأخر. وربّما...

لمحته يركض والعرق يتصبب منه، تساءل ساخراً:

ـ أما زلتِ حيّة؟ لقد توقعت العكس، فلم أترك لك طعاماً.

لم يتم كلامه، ولم أستطع مهاجمته، فقد حسم الرصاص الموقف، كنّا قريبين من الجامعة العربية، عمّت الفوضى، اختلط الذعر بالنقمة، والاندفاع بالتراجع، والهزيمة تسود الجوّ حاملة معها انكسار الأحلام، ودخول الآمال طور الغيبوبة، ركض زميلي المجنون بكاميرته تجاه الجامعة وهو يضحك! كان يبحث عن شيء لا أعرفه، يرقب زجاج الأبواب، الوجوه الفزعة، الرعب المصاحب لحركات الأجساد المتزاحمة، وقد أنعشه الركض المذعور في الشوارع، والوجوه الّتي اختلطت فيها المساحيق الملونة، فغدت لوحة تجريدية لفنان هاوٍ لم يعرف بعد الخطوط الأولى في فن الرسم، حتّى ذلك الحين لم أفهم مدحت، أيسرق مجده من ذعر الآخرين؟

تابعنا السير في شوارع بيروت، هو يروي الطرف، وأنا أزداد كآبة، حاول إضحاكي بتشبيهه صوت الرصاص بنغمات بيتهوفن، لكنّ ذهني كان منشغلاً بالسير الحثيث لمواكبة خطواته الواسعة الّتي تضبط إيقاعها على نغمات الرعب الغامض، تلهث خطواتي في محاولة

لتقريب المسافة بيننا. وعيوني تنبش ضباباً رمادياً نشرته قنابل غازية. لم نكد نصل نهاية الشارع حتّى صاح صوت شرس يرتعش حنقاً، مطالباً بإخلاء الشارع والشرفات.

واشتعلت السماء بالرصاص، وقفت في زاوية باب لأحتمي به، ثم التجأنا إلى مدخل بناية، عندها فقط شعرت بخطورة الموقف، الأبواب سلّمتنا للمداخل، والمداخل لسقف واطئ تحت درج بائس! نظر مدحت إليّ نظرة متسائلة لامبالية، تتهمني بالجبن، استغربت لا مبالاته، أحياناً أعتقد أنّه مجرد من الإحساس، أو أنّه خُلق في مكان وزمان غير مناسبين.

ادّعى صوته الحدة، وهو يدافع عن نفسه، فحزنه كما يردد دائماً لن يحلّ أزمة بيروت، وهو لا يملك قدر المدينة الجميلة الّتي يحبها. لم يستطع فعل شيء أيام الاجتياح! هزيمته ما زالت تقف شوكة في حلقه. قلت بشرود (ما أبشع ما أراه). أشهر حنانه في وجهي بشكل مفاجئ، وطالبني بالمحافظة على توازني بالكتابة عمّا يجري، كوتني الحرقة، ليس بيدي ما أفعله، إنّه محق، رفعت رأسي لأعبّر عن إحباطي، فاجأتني نظرته المتفحصة، أحسّ أنّي ضبطته. قال متلعثماً:

ـ أظنني معجب بك.

فتحت فمي دهشة، امتدت يده مسرعة وتناول كفي، سرت في جسدي رعشة مفاجئة، أعادت يدي إلى غمدها. واحتفظ بجديته لأوّل مرّة وهو يطلب يدي!

صمتٌ آخر، والرصاص يحدد بعنف مسار عواطفي، لم يكن الوقت مناسباً للحديث المباغت.

ارتطمت نظراته المحاصرة بسقف الدرج الواطئ (ملجؤنا) وأقرّ أنّي على حق دائماً! بمزيد من المرارة لاك كلماته منفرداً، وتركني أعاني

ارتعاشة اجتثت قلقي ورمتني في بحيرة الحيرة! عباراته عن بشرتي الشمعية، وأحاسيسي الباردة، ضربتني بعصا من نار، اشتعل لها القلب النائم، وعبّر عن حزن مفاجئ كسا سحنتي بالغيظ.

ومدّ كفه يتحسس وجهي، كهرباء سرت في جسدي فأرعشته، كان ردي عنيفاً، أوقفتُ يده بحركة حاسمة واتجهت إلى المدخل. صاح بي:

ـ انتظري، من منّا المجنون؟

لم أكن أريد الموت برصاصة طائشة، ولا بيد قناص أحمق، ومع ذلك انساقت خطواتي في ركضها نحو ملجأ آخر. خفّ الحصار، وخفتَ صوت الرصاص، تراجع الضجيج، وابتعدت الخطوات الثقيلة، وغادر ظلّ الأحذية السوداء رأسي، حاولت المحافظة على ثباتي وهو يمدّ رأسه كحرباء متلمساً النور في الخارج:

ـ الطريق آمنة، هيا بنا.

الوقتُ ينتقل بنا من مدخل بناية إلى آخر ببطء متعمد، بدأ صوت الرصاص يتناثر مبتعداً عن مسامعنا، رشقات خفيفة لطلقات باهتة! يعبر بأقدامنا إطارات محروقة، ويدخلنا بنايات احتلها المهجّرون، صور الاحتلال مختلفة بفوضاها، الهدف طلب اللجوء إلى سكن آمن! أيوجد أمان في بيروت؟!

نحو الطابق الخامس ساقتنا أقدامٌ أرهقتها بشاعة الصور ووطء أماكن الغياب! أتساوي صورةٌ يلتقطها مجنون من طابق خامس انحدارَه نحو هاوية الموت؟ قدما مدحت تشبثتا بالحياة، وهبطتا الدرج بعد اصطياد الفريسة بأقل قدر من الخسائر.

بعد أن تجاوزنا منطقة القتال تلك، بحثنا عن سيّارة تقلّنا حيث يرقد الموت مجاوراً الصورة الأكثر بشاعة للحرب، نصحنا السائق

بالذهاب إلى المستشفى الأمريكي، أو مستشفى اللاهوت، كلانا لم يكن يعرف من أبجدية بيروت سوى طلاسم مبهمة فتركنا له أن يختار.

هل اختار السائق قدري؟

حين حطت القدم وسط وحل الحقيقة، انزلقتُ بعيداً وسط هاوية الجنون، أطفالٌ أوثقت الحرب أعضاءهم بحبال التشويه، ونساء امّحت من ذاكرتهن صور الدفء المقرونة ببيت وزوج، وأطفال وأقارب، أهوال كانت تتدفق من فم الطبيب سيلاً من الجحيم ينصبّ في أذني فتغوصُ الأشواكُ بعيداً في حلقي.

وبدأ الدوار...

عند انتهائي من تفقد الغرف ورؤية المصابين، كانت الحروف تتدحرج في ذهني إلى الهاوية، وكان جرح في القلب يتسع ليمتد أمام شبكية عيني، فأفقد توازني، وتغيم الأشياء، أسرع في الخروج من المشفى هرباً من أشباح تلاحقني في وضح النهار! فتصدمني عينان قاسيتان تشعان سخرية، أوقفني نبض القلب المتسارع لحظات، أسرعت بعدها خارجة يتعقبني سؤال مُلح: لماذا نظر إليّ بهذه الطريقة؟ اغتاله سؤال آخر : لماذا فررتُ من رماله المتحركة؟

انتبهت من شرودي وراء عينيه، مدحت كان ملاصقاً لخطواتي، ينقل لهفته إليّ ابتسامات وملامسة رقيقة لكتفي عند كلّ عبور لشارع! اتفقنا على أن ننهي عملنا في يوم واحد، لنتفرغ لحال سبيلنا! غمز بعينه، وفهمت أنّ حاله هذا يعني أنّ له شأنا آخر في بيروت! بدون تفكير وافقت على اقتراحه، متناسية عرض الزواج الساخن الذي يمنحني حقّ الحصار والمساءلة، لكنّي فضّلت حصار اللغة الّتي تزحم السير في شوارع دماغي متجاوزة الإشارات الضوئية، منسحبة نحو البحر الغارق بزرقته ورائحة البارود!.

أقلّتنا السيّارة إلى شارع الحمراء، الحرب حوّلت الشارع إلى لوحة مشوّهة، انحلّ طلاؤه الجميل بماء البارود والكراهية، لكنّ بيروت تمطّت من جديد وهي تحاول الاستيقاظ من حلمها البشع، ناشرة ذراعيها في الأفق، رافعة بنياناً جديداً، وسط الدمار باسم برودواي سنتر، غارسة إياه وسط الشارع، لتعطي للحياة استمرارية رغم الحروب والضغائن.

هذه المرّة لم نستطع الحصول على سيّارة إلا بأعجوبة، توجهنا إلى فندق الكومودور، كان الفندق مكتظاً بالصحفيين والمراسلين العرب والأجانب، ولسوء حظنا لم نجد مكاناً لنا نحن الاثنين، وشعرت بالحرج والقلق، وبلغ مني التوتر أقصاه، ولم أدر على من أصبّ نقمتي، لمعت عينا مدحت فجأة وكأنّه وجد الحل. ولّى النهار مسرعاً، وزحف الغروب نحونا، وباتت رائحة البحر قريبة، تسربت تحت جلدي، وأصرّ شوقي على ارتياده، احتجّ مدحت:

ـ وقدماك؟

أجبت بإصرار:

ـ ستستعيدان ذاكرتهما.

وانحدرنا صوب البحر.

صبغ الغروب بلونه الدامي الأفق، ووزع ألوانه الدافئة على ملابس رواد الشاطئ، سنارات الصيد تنغمس في المياه الرمادية، والصيادون يجلسون بهدوء، يبعدون الحرّ بنسمات ترسلها مراوح قش صغيرة، وعيونهم ترقب انحدار الشمس في البحر حيناً، واهتزازات القصبة حيناً آخر، وقبعاتهم تندمج في لوحة المساء كأنّها طالعة من سطور أسطورة قديمة لا علاقة لها ببيروت الّتي يطحنها العدو من جهة وأبناؤها من جهة أخرى، أو كأنّهم وقفوا بها عند حدود الطفولة، هذا

المنظر أنهضها من كبوتها، شادّاً قامتها الشامخة، نافضاً عنها غبار الحرب وآلامها، هاهم الصيادون على عادتهم ثابتون على الشاطئ بأسلحة السلام، يواجهون وجه الدمار الذي خلّفته الحرب وتجارها.

عدنا ثانية في الطريق الذاهب إلى الشرق، ولم يطل بنا الوقت حتّى همس زميلي:

ـ هاهو المنزل، أرجو أن نجد أحداً فيه.

وراءه إلى الطابق الخامس! لهاثي ينفث التعب والرعب متلمساً العتمة الشديدة. طرق الباب مراراً، واخترقتني فكرة المبيت في الشارع كأنّها قدر لا سبيل لتلافي حدوثه. استدرنا لنهبط قلقنا، حين وصل سمعنا صوت نسائي يسأل عمن بالباب! سبقتنا لهفتنا معاً لإعلان الهوية.

همهمة في الداخل وتشاور تلاه فتح مزلاج ثم آخر، ثم ثالث! وانفتح الباب ببطء، وأطلّ منه وجه بيضاوي فوق قامة قصيرة نحيلة، لم أتبينه جيداً. أشعلتْ المصباح الخارجي، ورحّبت بمدحت متجاهلة وجودي، ودعيت إلى الداخل بصيغة (تفضل)! لفت انتباهي ترتيب البيت ونظافته. قدّمني زميلي باختصار معجز ممرراً طلب اللجوء إلى الفراش على أنّه خدمة قومية!

نظرت إليّ ملياً، بحياد رحّبت بي، ثمّ استأذنت، ودخلت الغرفة الثانية، لم تُطل قلقي وتحفزي، عادت بعد دقائق لترحب بوجودي في هيئة الأمم، حيث وافقت صديقتها المقيمة معها على استقبالي! غالباً ما أحاول اقتناص ابتسامتي دون جدوى، تلبستني رغبات مستحيلة إضافية (الطعام والنوم) أشعرتني بالخجل من مضيفتي. استأذن مدحت وذهب، كان المساء قد ولج في الأفق مخلّفاً وراءه عتمة مقيتة غلّفت قلبي بالحزن، وزاد حرجي. دخلت الفتاة الأخرى،

سلّمت بسرعة وكأنّها تؤدي فرضاً ثقيلاً، وذهبت، تململت في مكاني، ثم تمتمت متلعثمة:

ـ أحتاج للحمام إذا سمحت..

طلبت مني أن أنتظر..((لا تعرف في هذه الظروف أنّ احتياجاتك الاعتيادية تمثل ترفاً مستنكراً صعب التحقيق.)) عادت، ودلّتني على الطريق، خلعتُ حذائي المليء بالرمل والماء المالح، ولبست حذاء منزلياً صغيراً أعاق سيري، كانت مضيفتي قد وضعته أمام باب الحمّام، يا إلهي! ما هذا الارتباك الذي تلبسني؟ وكأنّي أسطو على أشياء حميمة ليست من حقّي! دخلت الحمام النظيف الجاف والمكسو بالبورسلان والمرايا والمناشف النظيفة المتدلية من علّاقة أنيقة، وبحثت عيناي بسرعة عن دورة المياه! يا إلهي ما هذا المأزق الجديد؟ إنّها على الطريقة الإفرنجية.! كانت مضيفتي كريمة فقد وضعت لي الماء في علبة سمنة فارغة وكأنّها تقدم لي ماء الحياة، واضطررت للتقنين، غسلت وجهي وقدمي، ومسحت ذراعي، وجففت نفسي بمنشفة أحضرتها لي خصيصاً! وتلاشت أحلامي بالماء بعد هذا اليوم المرهق المليء بالركض والرعب والعرق. عدت إلى غرفة الجلوس فبادرتني قائلة:

ـ لا بدّ أنك بحاجة لفنجان قهوة؟

حاولت أن أعتذر بطريقة تظهر جوعي، لكنّها نهضت بسرعة وذهبت إلى المطبخ، وعادت بعد دقائق بالقهوة وبعض الموالح! واعتذرت مني لأنّها ستطفئ النور من أجل التلفاز.

عندها انتبهت لوجود سلك كهربائي يحتوي على قاطع يمتدّ من النافذة إلى سطح البناية المقابلة، علّقت مضيفتي:

ـ الكهرباء مقطوعة باستمرار تقريباً، نضطر دائماً لأخذ خط من عند الجيران الذين يملكون مولّد، أو من جيران عندهم كهرباء!

كانت القهوة محرّضاً جديداً لمعدتي كي تتقلص ألماً، وتطلب الطعام من جديد، واضطررت لأخذ بعض الموالح الّتي لا أحبها مع القهوة. خرجت إلى الشرفة، ولاحظت شبكة العنكبوت السلكية الّتي تصل بين الجيران وبين أعمدة الشارع الّتي تدلت أحشاؤها إلى الخارج، وغرقت في مراقبة رجل مسن على سطح البناية المقابلة الّتي لا تتجاوز الأدوار الثلاثة، كان ينفث دخان نارجيلته غير عابئ بما حوله، يتفرج على التلفزيون الذي يبث فيلماً أمريكيا عنيفاً!

ولاحظت بوضوح شعارات ملأت سور السطح خطّتها يد غير مدربة على الكتابة بفرشاة دهان عريضة، فهمت من الشعارات أنّ الجار المندمج بالفيلم الأمريكي فلسطيني الهوية.

عرضت عليّ مضيفتي الدخول، عدنا للجلوس في الغرفة الصغيرة ذات الأثاث البسيط، وبادرتني بالسؤال إن كنت جائعة، وجدت نفسي تندفع بالرد، رافضة تهمة الجوع بسرعة، أصرّت بصوت محايد لا لون له، فلم أستطع التراجع، وطلبت أن تدلني على مكان النوم.

مشت أمامي في الممر المؤدي إلى الغرف الثلاث، والحمام والمطبخ، أدخلتني غرفة على يساري، لم أتبين ملامحها في الظلام، لها نافذة واحدة، أضاءت لي شمعة وجلبت كأس ماء! آه ما أعذب ماءك يا بيروت! حيّتني تحيّة المساء وذهبت.

استبدلتُ ملابسي بسرعة، وارتميت على أحد السريرين اللذين يشغلان الغرفة، فغصت في إسفنجه الطري، وسرقني النوم من كلّ ما حولي في لحظات قليلة.

في السادسة صباحاً، فتحت عينيّ وأنا أشعر أن ضلوعي محطمة، عبست في وجهي بقعة بنيّة كبيرة شوّهت بياض السقف، كان واضحا أنّه ترميم لمكان قذيفة، وابتسمتْ عشرات البقع البنية الصغيرة على الجدران الأربعة، وقدمت لي تحية الصباح، التفت إلى النافذة فوجدتها مضمدة بالورق المقوى والنايلون، كان واضحاً أنّ الغرفة كانت مسرحاً لمعركة، أو هدفاً لرصاص القنص والقذائف الطائشة، نهضت متثاقلة، فتحت النافذة لأستقبل وجه الصباح الباسم، فرأيته يضحك في وجه امرأة على الشرفة المقابلة، تسقي أصص الزرع المتراكمة على شرفتها، وكأنّها أرادت نقل ريف بأكمله، وحشره في هذه الزاوية الصغيرة من عالم المدينة المكتظ بالحجارة والبارود، وتدلّت ثريات خشبية من سقف بيتها مليئة بأوراق الزينة المختلفة، وعلى سطح ملاصق، تعانق ركامٌ من الزجاج والقطع الحديدية الصغيرة المتدلّية من هيكل غرفة زجاجية ذات تشكيل جميل، مع أشباح ضحكات ورنين كؤوس، وأصوات تنشد، وأخرى تتأوه.

آه يا بيروت... كم هو كبير وعميق وجعك، وكم هو صغير ألمي! تنشقت الهواء الصيفي الثقيل بعمق، وترافق تنفسي مع صوت مضيفتي تلقي تحية الصباح، ممزوجة برائحة القهوة. استمتعت بطقس جديد، مراقبة الشروق، مع رشفة القهوة الساخنة على الشرفة، عادة درج عليها سكّان بيروت قبل الحرب، هذا ما أخبرتني به مضيفتي.

معدتي كانت تتقلص بشدّة هاضمة نفسها، انتقلنا إلى الشرفة الغربية، الجار نفسه يطعم الدجاج في خن بناه على السطح، لم أستطع اكتشافه في الليل، و مزيد من الشعارات الّتي حجبتها العتمة ليلة البارحة، ضيعة فلسطينية مزروعة على سطح عال، دجاج وخوان

ونارجيلة، وسور من عبوات التنك تتدلى منها زهور مختلفة لم أستطع تحديد أنواعها، طغت رائحة الريحان بينها على إشراق الصباح.

شربت قهوتي المزوجة بالحليب وأنا أحاول الربط بين الشعارات المختلفة الأشكال والألوان والمعاني! ثمّ نهضت بسرعة، ارتديت ملابسي، وأحضرت حقيبتي، حاولت مضيفتي استبقائي لتناول الفطور، لكنّ طبيعتي تلك نفرت كغزال شارد لتجد حجة مناسبة للمغادرة، فقد شعرت بثقل حضوري المفاجئ بين أناس لم يعرفوني قبل اللحظة الّتي اقتحمت فيها بابهم طالبة المأوى!

عرفت بكلمات قليلة اسم مضيفتي وعملها، وقد شجعها الحوار على الابتسام والإلحاح في الدعوة!

تبادلنا العناوين، وهبطتُ الدرجات بسرعة وكأنّي تخلّصت من شرنقة تضغط على صدري على الرغم من لطف الاستقبال.

مشيت في شوارع لا أعرفها، كانت مألوفة جداً وكأنّها قطعة من طفولتي، تقلصت معدتي بشدّة وأنا أرى فتاة تحمل مناقيش الزعتر من فرن قريب، وضحكات النساء اللواتي يتناولن القهوة على الشرفات، لفتني الشوارع بهدوئها، وفيئها الرطب..

فسرت تجاه الغرب قاصدةً البحر...

انحدرت صوب البحر، مارّةً بحارات المخيّم الضيّقة، شغلتني طفلة صغيرة بعينين تغتسلان بالحزن وهي تجلس بهدوء في شبّاك بيتها، تعانقت شجرتان غريبتان في بيتين متقابلين، ونادت جارة لجارتها طالبة بعض الفلفل، متسائلة عن مكان وجود حسن،

ووجدتني أسرع الخطى فارّة من هذه البقعة الغريبة برائحتها وجوّها، والمزروعة في قلب بيروت قريباً من البحر، نظرتْ إليّ عينان غامضتان بريبة وشك، أين رأيتُ هاتين العينين؟ تملّصتُ من نظراتهما، حثثت خطاي، وتخلصت من شرنقة المخيّم، وأسرعت نحو البحر.

على رمال ((الرملة البيضاء)) جلست معه وجها لوجه، تنفست بعمق، مسحت العرق المتصبب، وبدأنا معا رحلة العتاب العذب، كم مرّ من الزمن!

كم من الزمن مرّ وأنا أدور في رحى المكاتب، تنغرس في رأسي أصوات الآلة الكاتبة، رائحة الورق تزكم أنفي، ناسية حاجتي إلى الاغتسال والتطهر في مياهه، ترى ألا تراني اللاذقية من هنا؟ تسلقتْ ياسمينة جدتي عروق يدي، حافرةً فيها ممراً لذكريات لا تنتهي، ورأيت نفسي أتعلّق بيدها السمراء محاولةً أن أواكب خطوتها السريعة، وهي تسحبني في شوارع بيروت الطفلة! كانت شوارعها شاسعة مزدانة، بهية كعروس، وكانت أنفاسي المبهورة تتلاحق محاولة أن تلتقط كلّ شيء، أن ترسم الأماكن والأشخاص وتطبعها في القلب، الأثواب المزركشة في واجهات المحلات وفي الأسواق الضيقة، الفاكهة الناضجة برائحتها الفوّاحة، التفاح الأحمر الذي تشتهيه أسناني حتّى الآن، إشارات المرور الملوّنة، الشارع المنحدر المؤدي إلى بيت خالي العجوز، بيته الخشبي المسقوف بالتنك، الحديقة الصغيرة الجرداء، وأطفال الحارة وأقارب جدتي، شاشة التلفزيون الّتي رأيتها لأوّل مرّة، تلك البلورة السحرية الّتي حدثتنا عنها جدتي في حكاياتها، تنبثق منها الدنيا كما تراها الساحرة الشريرة! وجه المذيعة الجميلة، شعرها الأشقر المرفوع، وثوبها الضيّق بدون أكمام، فاجأني ذلك الثوب، فهو من المحرمات حسب المفاهيم الّتي غرستها فينا

جدتي، أمّا أفلام الكرتون فقد أفزعتني قبل أن تشدّني، وظللت أشعر بالرهبة حتّى وأنا أروي لشقيقتيّ تلك الحادثة الرهيبة التي يتحلّق فيها النّاس حول صندوق العجائب الذي تختفي فيه امرأة جميلة، وتتحرك فيه قرود وقطط وفئران، ويغني فيه عبد الحليم وشادية وهما يتزحلقان!

ذلك العصر الذي أراه قريباً، عندما أرسلوني لآتي بالخبز من الفرن القريب، فأضعت الطريق، لم أر فرناً، ولم أعرف طريق العودة إلى البيت، كانت بيروت في الذاكرة أبنيةً عالية، وأبوابٌ متشابهة، وشوارع مزدحمة مكتظة بالسيارات، مهرجان من الألوان والألعاب والفاكهة، والكبار ذوو الأحاديث السرية! أين ومتى بالضبط؟ لم أعد أذكر، لكنّ ما أحمله منها مزدحم بالإحراج والدهشة، هاهي ذي أمامي، تلك الآنسة المربوعة القامة بشعرها المرفوع، تأخذني من يدي بلطف، وتذهب بي إلى مدرستها، أستأذنها لأذهب إلى دورة المياه، وهاهي ذي دموعي تغسل وجهي والباب مستعص على الفتح! ما اسم تلك المعلمة؟ لم أعد أذكر، كنت أنشج بدون وعيٍ، يد أحد المدرسين فتحت لي، مسح دموعي وراح يلفّ بي على المعلمات سائلاً إن كن يعرفنني!

ذلك المهرجان الجميل يمرّ أمام عينيّ بعريه وخجلي!

يتابع الموج معانقة قدميّ الحافيتين، وأنزلق مستلقية على ظهري، الشمس حادّة! في طفولتي البعيدة لم يكن الموج شرساً، ولم يكن للعرق هذا الطعم المر! والمطر؟ مطر اللاذقية القريبة الساكنة تحت الجفن المغمض، أركض في شوارعها لاهثة الأنفاس حتّى الإعياء، مرهقة بذكريات طفولتي الحلوة، تسكنني وجوه سمراء مغسولة بماء البحر،

أشير إلى بيوتها القديمة بدمعة عالقة بين القلب و الهدب، ويغسلني مطرها بفرح!

أركض على شاطئها، أفتح ذراعي بفرح، أودّ لو أستطيع احتضانها بمآسيها ودموعها، ببحرها العاشق المجنون، بليلها الهادئ الصاخب، بكورنيشها القديم، هاهي ((فينيسيا)) و ((البحري)) وبائعو الذرة المشوية و ((العصافيري)) الغائصة في أحضان البحر، وعشاق ليلها يمشون أمامي على الكورنيش الدافئ، أصواتٌ هامسة بحب، ضحكاتٌ مجلجلة، نقاشات ونارجيلة، وأكواب الشاي، وفناجين القهوة، وأمسح عن وجهي رذاذ الماء المالح، أركض، أحتضن وجه جدتي بابتسامتها المغسولة بالياسمين والحب، طفولتي ورفاقها، أحتضن وجه الحاج نعيم وهو يضع في يدي الطفلة كمشة سكاكر وقضامة مكسورة، ويبحث من خلف نظارته السميكة عن ((الفرنك)) الذي وقع تحت الطاولة، وألتهم رغيفاً ساخناً، تحترق منه أصابعي الصغيرة، وتسيل دموعي وأنا في طريقي إلى البيت حاملة الخبز من الفرن القريب من بيت جدتي، وأركض في المساءات الدافئة لأشتري البوظة من عند سعدية، والتفاحية من البائع المتجول على حماره، والميلانة الساخنة، آه، تزكم أنفي الروائح المنعشة، وتحضر اللاذقية أمامي بكلّ تفاصيلها الصغيرة، ويتحرك لساني بحثاً عن طعم تلك الروائح اللذيذة، تمتد يداي بحثاً عن تلك الوجوه الأليفة لتسرقها من الماضي، لتضمها إلى القلب، فيضحك وجه فاطمة، فتاة الحي الجميلة، وتبسم أم محمد العجوز من وراء دخان نارجيلتها، وتتألق شمس ابنة الجيران المتوهجة، وهي تهبط درجات بيتها الصغيرة القابع تحت خيمة نخلة كبيرة، كنت أظن في صغري أنّها تعانق

السماء، يقرصني الجوع فأشتهي تلك الأكلات الشعبية لحي الشيخ ضاهر، أتنهد بحرقة.. آه! أفتح عيني.

لا زال البحر يشاكسني، والشمس الحادّة تخترق جلدي فتلسعه، وتثير فيّ الرغبة بالتحاف مائه، وعينان غامضتان تنظران إليّ بشك وريبة! أهي مجرد صدفة؟

ألملم أشيائي وأنهض، أعبر الشارع، وأصعد تجاه دير مار الياس.

من شرفة بناء ضخم لم يبقَ منه سوى هيكله العظمي، أمطرني رجل مسلح بعبارات غزل وقحة، وضحك بصوت عال، وقبل أن أنعطف إلى اليمين، استوقفتني شجرة عجوز امتدّ فيؤها على الرصيف بأكمله وغطى إسفلت الشارع الساخن، اقتربت من سور البناية الّتي تحتضنها، تطلعت إلى أعلى، كان منظراً غريباً، أطنان من الغسيل الملوّن تتدلى من الشرفات، مئات الأسلاك تمتدّ إلى عمود الكهرباء الرئيسي في الشارع، أطفالٌ مشوهو الطفولة يقطرون شراسة، وينزفون نظرات متوترة ومتحفزة للهرب، يتراشقون بعبارات نابية أثناء لعبهم، إنّها ملاجئ المهجّرين، احتلوها بعد هرب أصحابها، آلاف الأسر تعيش متلاصقة في هذه الأماكن الضيقة!

سرتُ صاعدة جهة الشرق، وعندما واجهني المخيّم ثانية، صدمتني عينان تبسمان بسخرية، توقفت وتساءلت للحظة: ما معنى هذا؟ أهي مجرد صدفة أن أرى هاتين العينين في طريقي وأنا ذاهبة إلى الشاطئ وهنا... اقتربت منه وسألته بجدية عن المسافة المتبقية إلى صبرا. حدّق بعينين مرتابتين وهو يخبرني أن بإمكاني أخذ سيرفس إن لم أكن من هواة المشي. وذلك لن يكلفني كثيراً، التلميح الفظ أثار غيظي:

- أ ترى حقيبتي منتفخة بالدولارات؟

تراجع مبتسماً، وهو يتنبأ بأنّي لا أملك سوى الورق! ، ضحكت في سري محتفظة باستغرابي، وأنا أعلن رغبتي بالمشي ورفقته! نظر في ساعته ليعلن أنّ لديه ساعة فقط. متسائلاً عن هدفي من الزيارة!

لم تكن لدي فكرة عما أريده، ولم تكن الساعة تكفي لاختلاس حظي من العمر المارق بسرعة من أصابعي، لديّ فضول لأعرفه وليس لديه وقت ليجيب على أسئلتي!

اختصر بطاقته بكلمات، واختصر حياته بنظرة غائمة لم تحدد هدفها، ثم اعتزل الإجابة على تساؤلاتي المتدفقة كبركان حار في هذا القيظ المقيت، يبدو أنّي صحفية قليلة الانتباه، لم أربط بين وجوده في المشفى والمخيّم والشاطئ، وبين وجودي في تلك الأماكن بحرفة من يدرك الأشياء، بل بعاطفة من يبحث عنها، عاطفة تصيب بالعماء فتفقدك التحكم بقوانين السير، وتسلبك القدرة في السيطرة على قدميك. سألتني عن المدّة الّتي سأقضيها في بيروت، وأردت إخبارك عن المدّة الّتي أرغب في قضائها معك! أمّا عن رغبتي في زيارة صبرا فقد سبقني لساني ليعلن أنّها رغبة في الاطلاع. انتبهت لردي السيئ، حاولت تصحيح الموقف بإخبارك عن مهمتي في بيروت، لكنّك تجاهلت توضيحي، ودعوتني لتناول فنجان قهوة، سبقتني موافقتي دون تفكير.

اجتزنا عدّة شوارع، انحدرنا جهة الشرق في شارع فرعي ذي أبنية مكتظة ببيوت صغيرة، توقفت أمام بناء واطئ ملامس للشارع بنوافذه، وبابه الخشبي المتداعي، ولونه الرمادي.. آه!

ورأيت يداً صغيرة، صغيرة، تمتدُّ من الذاكرة لتفتح قفل باب مشابه، بهت لونه، وتهبط درجتين لتظللها ياسمينة كبيرة، وتحتضنها فسحة واسعة تغصّ بشجيرات الرمان، وتتسلق حائط

الجيران تينة عجوز تنوء بثمارها الشهية، وشجيرات ليمون صغيرة، وغرفة بأثاث بسيط، سرير وخزانة ورفوف اصطفت عليها كؤوس الشاي..

أركض إلى مطبخ مسقوف بالتنك والخشب في أقصى الساحة، أعتلي الكرسي الخشبي وأفتح الصنبور فوق فمي، وأنزوي في حضن جدتي، ومن بعيد تهاجمني رائحة السمك في مقلاة أمي فتثير الأمعاء الجائعة.

أنتفض على يدك تلامس يدي منبهةً:

ـ ماذا بك؟

هززت رأسي طاردة الذكريات الدخيلة، فُتِح الباب ببطء، ظهر خلفه شاب أسمر مشعث، استيقظ للتوّ، شممت رائحة ياسمين تتسرب من ماض بعيد، ستسير قدماي إلى فيئها، سأجلس على خوان خشبي، وأشرب ماءً بارداً و.. سمعت الشاب يردد:

ـ تفضلا.

أمعائي عزفت أنغام الجوع الشرسة، وأصابتني خيبة الأمل بدوّار خفيف، ابتعد الياسمين في دوّار الغياب، واستقبلتني درجات مشوّهة تنتمي إلى وجه الحرب الرمادي، فسحة صغيرة آوتنا من حر الشمس، بعدها غرفة بسريرين وشباكين يعتليان الشارع متلصصين على حركة المارّة وأحاديثهم، حاولت تشغيل مسجل صغير دون فائدة، فقد أخرست الحرب ألسنة محطاته، كما أخرست عواطف الإنسان البسيط، وقتلت أحاسيسه، الأرض الباردة تلقت أجسادنا المتعبة بتعاطف لا يملكه إلا التراب.! امتصت معدتي الغداء البسيط، وقدمت شكرها بتراخ واضح وخدر امتدّ إلى أطرافي، الشاي الساخن أعاد لحبات العرق على جبيني وهجها، واحمرّ الجلد الخامل في وجهي.

نظرت في ساعتي خلسة، تراك نسيت الوقت، ابتسمت في سري، لاحظتَ الابتسامة، فنهضت معتذراً، وأكدّتَ دعوة المساء، بلا اهتمام قلت لي:

ـ انتبهي من المطبات الّتي أحدثتها القنابل.

توجهت إلى الرصيف لاعتقادي أنّه أكثر أمنا، لكنّي تعثرت بخطواتي الّتي لم تألف ذاكرتها المكان، أنهضتني يدك، زكمت أنفي رائحة السمك الزنخة، والأقذار المتراكمة، وأصمّت أذنيّ أصوات الباعة والسيّارات، وضعت كفي فوق أنفي وحثثت خطاي: (أهذه صبرا؟).

أجبتَ هازئاً:

ـ لعلك أردتِ التنزه في حديقة، أنت في مقبرة، أحياؤها يتحركون كأشباح بدون هدف.

علق الرماد في حلقي وتراكم حابساً أنفاسي، لفحت وجهي نسمات حارّة، وتصبب جبيني غاسلاً عنقي بعرق بارد، وألحّت عليّ فكرةٌ واحدة: أريد حمّاماً، وعدت للجري وراءك في الشوارع الرمادية، وطعم البارود لا يفارق فمي.

3

انحرف مدحت شمالاً متوغلاً في العتمة، سمع صوت نبضه يصمّ أذنيه، جسَّ يده بفزع،

كانت ترتعش! أهو الخوف؟ هاجمه السؤال، فحاول الهرب إلى التقاط صور مشرقةٍ لنهار ولّى، لم يفاجئه خياله، الصور كلّها مرعبة.

حدّق ملياً لعلّه يجد فيما حوله ملامح يعرفها جيداً، أشكال الهياكل الرمادية لبنايات خارجة من خرافة موحشة، ابتلعت حذره بأفواه شبابيكها المفتوحة على العتمة فالتصق بالجدار! هل حقّا هو في بيروت؟

حركة مريبة جعلت قلبه يهوي بين ضلوعه، ارتجفت ساقاه.

فلسفته قالت إنّه يشمُّ رائحة الموت، وللهرب حكمة لا يدركها إلا من كان في مثل موقفه.

حين مرّ ذلك الشيء اللزج بين ساقيه، تيبس جسده متسمّراً قرب الجدار، الماء الممطوط للسواد المارق، بصق على خوفه ساخراً، إنّها قطّة! حدّث نفسه وهو يحاول اجتياز الدرجات الواطئة لبيت ذاك الصديق القديم.

فتحت يدٌ من أمس منسي المزلاج الخشبي، صافحته نظرات تائهة لعينين خابيتين خلف شمعة نصف محترقة، اتسعت ابتسامة لا لون لها، تمتمت شفتان لم تعرفا الكلام منذ دهر، تراجعت يدٌ إلى الخلف، وانحرف جسدٌ مفسحاً له الطريق للمرور.

التحية والأسئلة توقفت عن تدفقها بنظرة متحجرة من صاحبه، تحت ضوء شحيح، سطعت حقيقة (لم يكن يستطيع السلام) تحجرت الدمعة في عينيه حين بادره بالسؤال:

ـ كيف الحال؟

ـ.....

هناك في جسده تحرك عضو للرد، فأخرسته الفاجعة، اقترب منه، وضع يده فوق كتف لا تحمل عبء ذراع، لكنّها مثقلة بالألم، همس بصوت خاله لآخر:

ـ كيف حدث هذا؟!

لم يلتفت عمر، بقي رأسه منكّساً كعلم في حرب خاسرة، هزيمته تتوج الردّ بنكهتها المرّة.

التفت مدحت، انتبه للصمت الثقيل، لا صراخ، لا أحاديث خافتة، لا همس، أين هم؟

انبثّ صوتها في خلاياه محتجاً، مخنوقاً / **في ظلام الليل، أناديكم / هل تسمعون؟ مات أهلي وعيونهم محدّقة في سواد الزمان، وغمرت تلال بلادي الدموع والدماء.**

سالت خطوط حمراء من جدار كالح، امتزجت دموع ساخنة بها.. صرخت فيروز:

والويل لأمة كثرت طوائفها، وقلّ فيها الدين، الويل لأمة تلبس مما لا تنسج.

لم يكن صوتها محذراً يخترق الضلوع، كان ممتداً على خارطة الوطن ينادي:

الويل لأمة مقسمة.

الجدران الرطبة سالت دموعها فامتزجت الطباشير بالحبر، تضخمت الطبول تقرع، وفيروز تصرخ /**يا بني أمي**/ وعمر منكس الرأس، هل يأبى السلاسل ذلك الوطن المزروع بين عينيه؟ الصديد الراشح من تشوّهات الجدران، سبورة الصغار الّتي حملت بصمات أفراحهم وأمانيهم؟ هنا كتب أكبرهم بخطٍ واضح، هنا رسم أصغرهم سفينة وصنارة صيد. لوحة المساء لم تكن قد غادرت عين كاميرته، نظراته المتفرسة في الجدران وعت المأساة، لا أسرة..

أطاح بها صباح مشرق، وتلك الذراع؟ رفع عمر رأسه ببطء.. ببطء نزلت دمعة، غاصت في شعيرات شاربه الكث ولحيته المشعثة.

ـ ذات صباح مشرق، على شرفتنا... على.. أخذوا ذراعي معهم، باقي الشظايا، لم تفلح في نسف الجسد، رحلوا وحدهم!

جمد مدحت، الكلمات توقف نهرها، غاضت فرحةٌ محتملةٌ باللقاء، تراكضوا إليه على ضفاف حلم، صاح أصغرهم: (أرأيت لوحتي عمو؟) يضحك ملء روحه: (ستصبح يوماً ما فناناً عظيماً.) تغوص غمازتاه: (هل أصبح مثلك؟) يقهقه: (لا، لا، بل أطول بكثير..) ويغمز عمر (ولدك شقي، سيكون له مستقبل رائع.) تنهار السمكات الصغيرات في أوراقه، يبتلع المتوسط حلماً آخر، بل الأحلام مجتمعة، أكان ينتظر حقّاً أن يرى عماد فناناً متميزاً؟ تطلّع نحو أصابعه المتشنجة، هل يعقل أن تبقى الرائحة لإنسان لم يعد موجوداً؟ يقرّبها من أنفه، تفوح رائحة الأحمر، يسأله محاولاً الاقتراب من عالمه: (لماذا تلوّن السمكات بالأحمر؟) ببراءة يجيب: (كي يراها الصياد وسط الزرقة..)

أكان عماد يدرك إشكالية الأحمر في حياتنا؟ سأله الصمت، لم يجب، بحثت عيناه في الجدار عن غنوة، رآها تختبئ في الزاوية، تمسح دموعها وتشهق! تنظر إليه بطرف خفي، تعرف أنّه سيقترب منها، تعرف أنّ الدمع سيكون طريقها إلى ما تريد، يتأملها، نفس الثوب الأحمر، نفس الشعر الملوّن، نفس الإضاءة الزرقاء في عينيها.. حاول تجاوز ذكرياته باستفسار غبي عما حصل، لكنّه تراجع قبل أن تتمرد الكلمات على صمته، قرر: ليس هناك فائدة.

جمع أفكاره بين يديه، ضغط رأسه محاولاً إرجاع تلك الذاكرة إلى حيث خطّ أول لون على ورق أبيض، حاول جاهدا أن يكسر حاجز الصمت بين روحه ولسانه، فشلت محاولاته فاستسلم لشتات ذكرياته المضطربة.

قرب البحر كانوا يمرحون، ركضت غنوة خائفة وارتمت في حضنه وهي تشير إلى طائرة مرقت قريباً من الماء، وخلّفت دويّاً أصمَّ آذانهم. أحسّ بدفء أنفاسها ورعدة الخوف وهو يتطلع إلى السماء، كم هي قريبة!! أفلتت عبارته معبرة عن استغرابٍ شابهُ خوفٌ مما يحدث، نهض عن الشاطئ نافضاً ارتباكه، كان عمر يسحب عماد راكضاً إلى السيّارة، كلاهما فكّر بالهرب، كلاهما ترك الصمت يعبّر عن أعماقه القلقة.

منذ ذلك اليوم أحسّ بألم خفي وأفكار غريبة تقتحم مخيلته فارضة صورها المفزعة لمستقبل سيأتي، منذ ذلك اليوم عرف بحس غامض أنّه لن يرى السمكات الحمراء تلطخ الورق الأبيض بلونها القاني، وأنّ زرقة المتوسط ستخدع عينيّ الصياد.

الكلمات المبتورة المتبادلة بينه وبين عمر امتدت طوال ليلة قاسية، امتدت طوال جرح، فأحسّ بالعجز عن التفكير في الحمّام أو الطعام، اكتفى بالحملقة في السقف، في الجدران، نبشت عيناه الفرش والأغطية، وخزانة الملابس، والألعاب المشوّهة، توقف طويلاً عند العبارات الّتي خطّها الصغيران على الجدران، توقف عند شكل مضحك لفتاة ترتدي كعباً عالياً معلّقاً في الهواء! وفمها يحاول رسم ابتسامة شقية، وشعرها يمتدّ حتّى يختلط بزرع البستان، ارتعش في داخله طير حمل سنبلة، كانت تلك أول خطوط لعماد رسم فيها غنوة عندما ستصبح عروساً، لماذا يبقى الحلم ماثلاً بعد رحيل صاحبه؟ هنا كانت طفولة تكتب تاريخها.

هل للطفولة تاريخ؟

ابتسم بمرارة، للطفولة تاريخٌ معبّأ بالأحلام المغتالة سلفاً.

ما أصعب انتظار الصباح! مرّت نسمة ثقيلة عبر النافذة المفتوحة، حرّكت بقايا ركود في أعضائه، تمطّى، سمع صوت عظامه يصدر احتجاجاً صارخاً، هل يقول: صباح الخير؟ عبارة باهتة لا معنى لها، النهار القادم اجتاح النافذة مضيئاً أرجاء الغرفة الكئيبة البائسة، بهرت الصور والعبارات ناظريه، وطعنت القلب، سلّم على صديقه وانفلت خارجاً، أراد الفرار بأقصى سرعة، الفرار من نفسه وذكرياته ووجوه الصغار الّتي تلاحقه.

حين احتوى الرصيف خطواته، تنفس الصعداء، زفر أنفاسه المحشورة في صدره طويلاً، شعر ببعض النشاط وهو يستقبل شمس بيروت في إطلالتها الصباحية، ساقته قدماه إلى حيث ترك أحلامه مساء البارحة، حين صعد الدرجات الّتي لا نهاية لها، نسي كلّ ما يتعلق بليلة البارحة، انداح عطرها قطرات رطبة فوق عشب أخضر، اقترب بأنفه من الرائحة المسكرة، نهضت بقامتها الطويلة من غفوتها تحت جلده، حضرت أمام عينيه كحلم، هاجمه الواقع، وجد يدها تنسل من يده بحدة، سمع صوتها محذراً حازماً، طرأ له خاطرٌ أفزعه (أتحب آخر؟) لكنّه يلازمها دائماً، لو كانت على علاقة بغيره لعرف ذلك!

ضغط الجرس بتوتر، طالعه وجه هدى كأنّها تنتظر قدومه، لامته بلطف على تأخره وأخبرته بمغادرة صديقته قبل ساعة، وسحبته من يده إلى الداخل، دخلت المطبخ بخفة فراشة، لتعود بفناجين القهوة. كان فعلاً بحاجة لفنجان قهوة، لجلسة مريحة، لشخص يتبادل معه الحوار بعد تعبه من تبادل الصمت مع جثة متحركة خلال الساعات الماضية، شكرها لاستضافتها زميلته، بادرته بسؤال عن أخباره، تنهد بعمق مرخياً جسده على الأريكة:

ـ نعم مرّ زمن، ربّما يكون طويلاً.

ابتسمت هدى:

ـ أتذكر؟

رشف قهوته ببطء وهو ينظر في عينيها:

ـ ليس لي سوى الذكريات هنا.

تابعت بابتسامة معلّقة بين الغموض والإفصاح:

ـ لكن طال الزمن بيننا، هل يمكننا استرجاعه؟

استدراكها ذاك أشعره بفخ قريب، ابتعد بحذر:

ـ أما زلت جادة في تحضير الماجستير؟

انتبهت لهروبه:

ـ نعم أفعل، أريد ملء وقتي، تعرف الظروف الصعبة، لا قبل لي بالعيش في طرابلس، أدمنت بيروت، والجامعة سبيلي الوحيد للبقاء فيها.

ـ إذاً الظروف هي الّتي تبقيك، لو تغيّرت ماذا ستفعلين؟

أكدّت عشقها للمكان:

ـ سأبحث عن أي عمل آخر، لن أتركها.

غزاه فضول قديم للدخول في لعبة حساسة:

ـ ولنفرض أنّك سترتبطين بشخص لا يسكنها، ماذا ستفعلين؟

قالت بأعصاب مشدودة وهي تسحب نفساً عميقاً من سيجارتها:

ـ حسب الشخص الذي سأرتبط به، إن كنت أحبه، لابدّ أن أضحي ببيروت لأجله، وإن كان ارتباطاً عادياً يجب أن يقدّر ظروفي.

نجحت مناورته، فهل يتسرع؟ لا.. لا.. لم ييئس بعد من موافقة ندى، حبّها يمتزج بدمه، لا يستطيع الارتباط بأخرى ولو كانت تمثل ماضياً جميلاً بالنسبة له، استعجل النهوض:

ـ شكراً على القهوة.

استمهلته:

ـ لم أرك بعد؟

ـ سأمرّ عليك ثانية، ألم تخبرك ندى أين ستقيم؟ أريد إرسال بعض الأغراض معها قبل سفري إلى طرابلس.

قالت بضيق:

ـ أعطيتها عنوان سيدة تسكن وحدها، رفضت البقاء هنا.

كانت تريد إكمال جملتها (هل تحبها؟) لكنّها اكتفت بنظرة طويلة في عينيه فهم مغزاها فابتعد خارجاً من الباب مودعاً:

ـ إلى اللقاء.

استوقفته:

ـ انتظر، سننزل سوية.

سارا في الشارع صامتين، قطعت هي الصمت بسؤاله عن وجهته، أجابها دون اهتمام بأنّه سيتسوق ويمرّ بندى! واستدرك:

ـ أتريدين شيئاً من هناك؟

رفعت كتفيها بلا مبالاة، احتضنت صمتها، ومضت إلى الجامعة..

نزفت ذكرياته المالحة أطفالا مشوهي الطفولة، وكلبا أعرجَ يركض بعيداً يلاحق نجمة، يقطفها فيسيل لعابه دماً، كانت لوحة كئيبة رسماها على شاطئ رمادي، جاء المد وحمل اللوحة إلى رحم البحر، وانسلت الرمال ملساء صافية مخضبة بالملوحة الرطبة.

4

وصلت في الزمن المحدد ، هبطت التلّة الترابية المزروعة على الشاطئ لسبب أجهله، متعثرة ببقايا علب البيبسي الفارغة، ومخلفات البيوت المتعددة. ((هاهو بحرك! حاوية قاذورات، تصطرع فيه أسماك متوحشة ومخلفات بشرية قاتمة السواد!)) صرخت نفسي منبهة، ردّ الصدى، لا، رغم كلّ القذارات يغتالني بحرك يا بيروت، رغم أنف الحرب والموت يشدّني بحنو لأركض كطفلةٍ سعيا وراء لقاء عابر! تراه سيكون عابرا؟

لمحتك تهبط خلفي، تعثرتُ ثانية وأنا أمدّ يدي لتحتضن كفك بحرارة، ونسيت الكلمات المتزاحمة في أعماقي. وساد صمت ثقيل، اخترقه صوتك بلوم:

ـ تأخرتِ؟

امتدت يدك لتحيط بكتفي، لم أعترض، انقدت لحنانها مستسلمة، تشبثت بها وأنا أهبط نحو البحر، أشرتَ إلى صخرة منخفضة في قلب الماء لنجلس، تبعها عتب رقيق اللهجة لاختياري مكاناً مقفراً بدل المقاهي المريحة. كان يجب أن تعرف أنّي لا أحب الجلوس في المقاهي، وأكره رؤية البحر من وراء الزجاج، بالإضافة لكراهيتي نظرات الآخرين المتفحصة. ابتسمتَ:

ـ هناك مقاه شعبية، لن تشعري فيها بمثل هذه القيود التي تتحدثين عنها، وإذا كنت تعتقدين أنّي مفلس، فأنت مخطئة، على كلّ أنت تسدّين.

ضحكت مجارية لهجتك العابثة، إنّها المرّة الأولى التي أشعر فيها بارتداد إلى الطفولة، سعادتي تفوق احتمالي. أشرت إلى ركبتيّ المغسولتين بماء البحر إشارةً أربكت طفولتي وذكّرتني بأنوثة كنت أحاول تجاهلها دائماً.

لم يكن خجلاً فقط ذاك الذي ضرب الوجه بدماء قانية ارتعشت له يدي وهي تمتد لتغطي ركبتي، كان شيئاً يشبه الحلم البعيد، يشبه قوس قزح وتدفق مطر، وإغفاءة فجر، هوى نيزك من عليائه، واخترق قلبي. أخذتَ يدي، ودعكتها بقوة، رفعت ضغط دمي وشعرت بالدم يغتال خلايا الجلد فتكاد تنفجر. حاولت التحايل على ارتباكي بجرّك إلى حديث فرعي عن صديقك الذي استقبلنا في صبرا.

ـ تقبلين عليّ كحلم، وتقحمين آخر في الحديث!

الهجوم المفاجئ أربكني، ولم يكن الاعتذار سوى ضيف ثقيل، ستغض النظر عن حضوره مرغماً، اختارني الصمت رفيقة، لكنّه لم يحرّضك على الاقتراب مني، انزويت مبتعداً بنظراتك إلى الأفق الداكن الزرقة، ورحت تخبط الماء بقدميك محدثاً ضجيجاً في روحي. طالت حالة الغضب والصمت، بحثتُ عن منفذ أعبر منه إليك:

ـ ما فهمته أنّ لك نشاطاً ما، في منظمة ما، هل أستطيع معرفة المزيد؟

قلت جاداً:

ـ لا أظنّك جهاز مخابرات!

حلّقت غمامة سوداء فوق رأسي، أمطرت بعض رمادها في حلقي، واندفعت عبراتٌ متمردة عابرةً جفنيَّ باحتجاج ساخن، لا، ليس رداً هذا، أنت تقصد أن تهزأ مني، لاحظتَ ظلّ الدمعة الهابطة بسرعة نحو خدي، فسارعتَ توقف العاصفة التّي بدأت تهزّ جسدي:

ـ يا إلهي إلى هذا الحد أنت هشة؟ أرجوك أنا لم أقصد إيلامك، أردت القول أنّ عملي خاص بي لا أحبّ الكلام في هذا الموضوع، أريد أن أتنفس الهواء بملء رئتي، دعيني أتنفسه معك، ابتسمي أرجوك.

بحثت عن شكل الابتسامة المناسبة، لم أجدها، اكتفيت بمسح دموعي بانكسار، كنت أظن أنّني تسربت بمهارة لص محترف إلى روحك واقتنصت نبضك! ، طيف ابتسامة مرّ على شفتيك مسرعاً ليقول بأنّي مختلفة!

كنت أنتظر بلهفة ما بعد اسمي الذي رفّ كسرب حمام على شفتيك، ارتخت كفك عن أصابعي، حدّقت بعيداً، شوكةٌ وقفت في حلق كلماتك منعتها من الخروج، فأدمت روحي، قلت وكأنّك تتحدث إلى شخص غيري:

ـ أحياناً أشعر أنّي أريد احتضان العالم بيد واحدة، أحياناً أشعر بالتقهقر فأنزوي في غرفة ضيقة، أجترّ يأساً مزمناً، وأفرط في تعذيب نفسي، لا أدري لم أقول لكِ ذلك، لكنّي كتلة تناقض، لن تستطيعي التعامل معي، صعب ندى، صعب.

ـ أريدك طائراً يحلّق بعيداً في دائرة فضائي.

ـ تريدين أسري إذا؟ الأسهل عليك أن تطلقي الرصاص عليّ.

ـ أريدك حراً.

ابتسمتَ بمرارة :

ـ لا حريّة في بيروت، الحرب تعتقل الحريات.

ـ ومن صنع الحرب؟ لماذا نتهم الأشياء دائماً وهي بريئة من أفعالنا؟ المتوسط متهم، إنّه يسهل تهريب السلاح للأطراف المتصارعة، لفظَ جيوش الغزاة على موانئه وتركهم يجتاحون بيروت. بحركَ هذا يحمل قذاراته سموماً تدمر عقولاً شابة، وأجساداً فتية كان يمكن أن تبقى في خطوط المواجهة الأولى مع العدو، لقد كان طرفاً في الحرب، هل تستطيع محاكمته؟ هل تراه مجرماً؟ التسميات الخاطئة أقنعةٌ نرتديها ضدّ الخوف من قمع السلطات.

نظرتَ طويلاً في عينيّ، أدخلني دفء نظراتك بوابة العبور، على شاطئك رميتُ قلقي، فكرة واحدة سيطرت على أحاسيسي، كيف سنلتقي؟ كنت تنظر للّحظة الّتي نعيشها، وكنت أرسم دوائر مغلقة لمستقبل راح يزاحم حاضري على المكان.

قلبي! اعتصرته مخلفات قهر، وبقايا رماد قصة حب فاشلة، قلبي ملَّ البحث عن نبضه، وقبع في زاوية منسية يجترُّ أحلاماً مرّة وبقايا أحاسيس فجة. أصابعي المثلجة تخبرك إنّ قلبي التقى نبضه، أخذتَها برقة:

ـ يداكِ باردتان؟ أتعانين من شيء؟

ـ نعم، يهرب الدم أحياناً منهما غيظاً من حالة إحباط، أو خوفاً من اقتحام حب، أو خجلاً من لمسة رقيقة.

ـ والآن؟

ـ الآن اجتمعت كلّ الحالات ضدهما.

ضحكتَ بصوت عال وكأنّي قلت طرفة، وسحبت يدك:

ـ لا، أخشى أن تضيفي إلى الحالات حضور الموت المفاجئ، فأكون عزرائيل دون أن أدري.

حضر الموت برائحته النفّاذة في أنفاسك الّتي زفرتها على دفعات غاضبة، لكنّك حدّثتني عن الحياة، عن زروبا يسكن مشاعرك حدَّ اعتقادك أنّه نموذج لحرية مستحيلة! كنتُ أعتقد أنّ الرجال أحرار في اختيار طريقة حياتهم وحريتهم، لكنّك أظهرت لي رجلاً مقيّداً بسلاسل لا نهاية لها. التناقض الذي طالعتني به أفكارك ألجم عواطفي، تطلعتَ في وجهي ملياً:

ـ الإنسان لا يملك الحريّة الّتي يريد في ظروفنا هذه.

ابتلعتُ كلماتك أشواكاً. يبدو أنّي دائماً أضع نفسي في مصيدتك بغباء لا حدود له. على حافة لغمك وضعتُ لساناً يملك مرجعية ضيّقة الأفق، على حدود قهري انفجر اللغم، وتناثرتُ أشلاءً. حاولتْ كلماتك لملمة أجزائي، كلّنا غارقون في تفاصيل حياتنا اليومية، نجترُّ قضايانا المهترئة، لننسى القضية الأساسية، هم أرادوا لنا ذلك، ونحن قانعون بسياسة القطيع. جمعتُ الأجزاء وأنطقتها:

ـ هل تعني أنّك غير راض عن الخط الذي رسمته لوجودك؟

ـ تقصدين الذي رُسِمَ لي.؟

ـ أنت خاضع لقوة أكبر منك، تسيّر حياتك؟

رميت آخر حصاة من يدك:

ـ ليس تماماً، رغم شعوري هذا، أفهم أنّي اخترت هذا الطريق بالذات، فلم يجبرني أحد على اختيار العمل الذي أقوم به، قناعتي تلعب دوراً رئيسياً في أفعالي. لكنّي لم أختر الظرف والوقت والنّاس، أنا خلقت فوجدت نفسي لاجئاً، وفرض عليّ نوع الهوية وطريقة العيش وطبيعة الذين أتعامل معهم. دائماً هناك قوى خفية تتحكم بمصيري.

ـ هل أستطيع استنتاج موقفك من المرأة؟

ـ أنت تملكين رأساً جميلاً!

ـ لا أظنك تعني أنّه فارغ؟

ـ لا، بالعكس، أنت فعلاً جميلة. وهذه مشكلة جديدة.

ـ لا تقل لي إنّك تكره الجمال!

ـ لا، لكنّي أخشاه.

ـ تخاف المرأة أم الحبّ؟

ـ أخاف الاثنين.

صدمتني صراحتك، ولم أجد في كلماتك عن كون المرأة ضرورة من ضروريات الحياة كالشمس والهواء ملاذاً لقلقي:

ـ في حياتك حبٌّ إذا؟

ضحكتَ بمرارة :

ـ لا، رغم أنّي أتنفسه، رئتاي منسوجتان بحب المرأة، لكن!

لكن، استقرت في قلبي سهماً مسموماً، لكن! هززت رأسك تطرد بقايا كلمات مزعجة لا تحب النطق بها، وسألتني أن نذهب، لم تنس دعوتي إلى الغداء، شعرت بارتباك، كنت أود لو أستبقيك، ليخترقنا هواء البحر معاً ويوحدنا موجه. ابتسمت لي، ابتسامة زلزلت كياني، أسألك عن حب متوقع سيصادفك، كيف ستلاقيه؟ لن تستطيع حمل البحر معك! لا تريد توريط نفسك، هل الحب ورطة؟

ـ ضمن الوضع الاقتصادي الذي نعيشه؟ نعم وأكثر من ورطة.

لم أتراجع هذه المرّة أحسست أنّها قضيتي ويجب أن أكسبها، ما علاقة الظرف الاقتصادي؟

توقفت فجأة، نظرتَ إليّ وكأنّي جنية هبطت من كوكب آخر، تفحصتني بصمت أقلقني وهزّ الأرض تحت قدمي فمادت بي :

ـ لا أريد جرحك، مع ذلك أقول لك، أنت لا تفهمين شيئاً، تعالي.

وسحبتني من يدي بحياد، إلى المخيّمات انقدت وراءك كطفلة، ذبحتني الحقائق، كنت تتكلم بشراسة وأنت تريني كلَّ شيء، وتفيض على ما أراه مشاعر الغيظ واليأس، كاد صراخك يثقب أذني:

هل رأيت آثار الاجتياح الحقيقية، هل رأيت الدمار الحقيقي؟ اكتبي إذاً.

لم أعرف بم أجيب، لعنت الساعة الّتي قبلت فيها دعوتك على الغداء، لكنّي تماسكت قليلاً.

سرت أمامي صامتاً تجاه صبرا، كانت خطواتنا تنحدر أمامنا، وتتدحرج أشباحك بين قدميّ، لم يعد حديثنا مجدياً، ما فتحتَ عينيّ عليه كان الصفعة الأكثر عنفاً، والصحو الأكثر مرارة.

5

رميت حقيبتي في الزاوية، وجسدي فوق السرير، كانت الغرفة ذات النافذة الوحيدة تطلّ على أشجار ليمون كثيفة الخضرة، غامت عيناي بالدمع، لم أعرف السبب الحقيقي لبكائي، ولم أعرف حتّى اللحظة إن كنت أحببتك!. البقع البنية في السقف تمطر أنيناً وزفرات وتساؤلات مرّة، تقلّبت في الفراش أستحضر النوم، علّي أجدك في الحلم تنتظرني، دون أسلحة مُعدّة مسبقاً للقتل الفوري، لم يمنحني الصحو فرحة اللقاء، نهضت متثاقلة، صنعت فنجان شاي، أخرجت كتاباً من حقيبتي، لم أفقه شيئاً من سطوره، اتجهت إلى المطبخ، تناولت شطائر باردة، وأعاد الشاي الساخن إلى وجهي دورته الدموية، كنت أريد حفظ الساعات الّتي قضيتها معك بثوانيها في قوالب مبردة، وأضعها فوق جبيني لأصحو، أريد حناناً وعيناك ترشحان قتامة مرّة. رحت أدور في الغرفة الصغيرة، الجدران تضيق وتطبق على صدري، لِمَ تركتني وذهبت؟ تراجع السؤال منكمشاً في حنجرتي، ومن أكون بالنسبة لك لأفرض عليك وجودي؟ السؤال لم يكن صعباً، بساطته أرهقتني، من أنا في هذا اللحظات؟

أمسكت القلم، خططت على الورق الأبيض ((الوضع الاقتصادي المتدهور يقتل الحب!))

مزّقت الورقة، سيضحك رئيس التحرير، لا، بل سيرمي الأوراق في وجهي صارخاً: حبّ؟ ما علاقة هذه المفردة الغبية بما كلّفتك به؟ نعم هذا ما سيقوله. خططت ثانية ((الرماد في بيروت ينجب ثورة جديدة)) ثورة؟ ماذا تكتبين؟ يا للسخف، هجمت على أوراقي، مزقتها، فتحت النافذة ورميتها لهواء المساء العالي الرطوبة، هاجمني الدبق، اللزوجة المزعجة جعلت جلدي يصرخ يريد الماء، عدت إلى السرير، فشلتُ في حواري مع البقعة البنية الصديقة فقد اختارت الصمت، لا تعليق عندها على ما يحدث:

ـ كيف تنظرين إلى الحرب الأهلية في لبنان؟

ـ .....

ـ ما رأيك بما خلّفه الاجتياح الإسرائيلي من دمار في بيروت؟

...

ـ هل تعتقدين أنّ الأزمة الاقتصادية الّتي يعيشها اللاجئ الفلسطيني تمنعه من الحب؟

ـ .....

ـ والزواج؟

ـ .....

ـ هل حقّاً الوضع في المخيّمات بهذه القسوة؟

ـ .....

تراه يحبني؟

ابتسمت البقعة البنية، استطالت ابتسامتها الساخرة، غطّت السقف الصغير وامتدت إلى الأفق المعتم في الخارج.. أخيراً استطعت

الحصول على جواب لأسئلتي المستعصية، أنتَ أردتني أن أواجه الريح، وأنا لم أكن أقل عناداً واندفاعاً منك، لكنّي الطرف المتفرج، الطرف الذي يعيش القضية بعواطفه ودموعه و لا يقدم على الإمساك بالسلاح! أسلحتي الصدئة لا تنفع في زمن الحرب، إنّها تطلق للخلف! هل أستطيع الاقتحام؟ اقتحام عالمك؟ بيتك، قلبك؟

نظرتُ إلى الليل الصامت في الخارج، وقبلتُ التحدي، همتُ على وجهي في الشوارع المتنصلة من ذاكرتها، يخفق قلبي لحفيف ثوبي ووقع خطواتي على الرصيف، تهجم عليّ أشباح الأبنية المنهارة، تطلع الجثث من أكفانها، تنظر إليّ باستهزاء، تتشبث بساقيّ وتشدّني إلى الجدار (تريدين حقائق عما جرى؟ هاهي أمامك، ينشرها الليل بدون أقنعة.) أريد أن أحتمي بك من خوفي، أحثُّ خطاي، لكن ليس بيننا موعد، ألن...؟ قدماي تابعتا السير، هناك ما هو أقسى من الخيبة، والرفض، هناك أفق ينهار، سماء تحتضر، وإنسان يحمل هزيمته وانكساره كفناً لأحلام لم يعشها، ما الذي تفعلينه وسط الجحيم؟ هل حقّاً سترفعين الأنقاض بقلمك! هل ستغيّرين نظام الأشياء؟ لا، لكنّي سأرفع أنقاض روحه، لا، لن أتركه يتهدم تحت وطأتها، داخلني الخوف وأنا أهمُّ بطرق بابك في هذا الليل الحزين، ترددت قليلاً، أصوات غناء بعيد تلهث حارّة بتأثير رعب خفي، تصحبها رشقات رصاص قريبة! تسمّرت في مكاني، جسدي يرتجف وعيناي على الباب القريب، أمدّ يداً مترددةً إلى الخشب القديم، يلتصق طلاؤه المتآكل بيدي، أهمس: أتيتك جمرة تريدك أن تحترق بأنفاسها.

هزّني صوت قريب، صوت ألفته حتّى أصبح مني، سحبني وراءه إلى دنيا تختلط فيها الكوابيس بالأماني المستحيلة، تتفتح فيها شقائق

النعمان بالرغبة، وتزيّن قبور الراحلين. يختنق صوتك بارتعاش الفجر، وقسوة الحلم، وشوق السنابل المتطاولة للالتحام بالسماء وهو يسأل:

ـ من؟

تحشرج صوتي مبدياً ارتباكي:

ـ أنا ندى.

أطلّ رأسك معفراً بالاستغراب، غاصّاً بالحرقة، صدمتني مقابلتك، أطاحت بالكابوس والحلم واللهفة، أفصحتُ عن ترددي:

ـ مشغول؟ أعود في وقت آخر؟

أجبتَ بحياد ودون أن تنظر إليَّ متابعاً خطواتك إلى الداخل:

ـ لا، سيريحني وجودك.

سرتَ أمامي وكأنّ الكلمات لشخص آخر، لم يبدُ عليك أنّ زيارتي ستريحك فعلاً، تعثرت ـ وأنا أعبر إلى الغرفة الداخلية ـ بالعتبة الفاصلة بين الغرفتين، امتدت يدك بسرعة، أنهضتني، حلّ الارتباك ضيفاً ثقيلاً على حواسي، سحبت يدك بسرعة وأشعلت سيجارة من نار الشمعة، وعيناك تلومني على حضور في غير أوانه. نهضتُ من مكاني منتفضة من لسع كلماتك الباردة، امتدت يدك لإيقافي:

ـ تتسرعين في فهم الأمور، أنا أخاف عليك، لا أدري السبب، لكنّي حقّاً خائف عليك، تعرفين مدى خطورة مجيئك الآن؟

جلست قبالتي وأنت تنفث الدخان بعصبية:

ـ هذا التوقيت بدون كهرباء، وفي جوّ الحرب توقيت خطر وأنت وحيدة وغريبة، أتظنين أنّ أحداً يدرك حيادك؟ احمدي ربك أنّك وصلت سالمة، ولم تكوني صيداً لأحد القناصين.

لم أجرؤ على تكرار كلماتي الساذجة أمامك ثانية (إنّ بيروت لن تتغير خلال عشرين سنة، وهل بقيت أنا طفلة خلال العشرين الّتي مرّت؟) أطفأت بقايا سيجارتك، نظرت إليّ متفحصاً:

ـ ألم أقل لك إنّك تعيشين أوهامك وتريدين إقناع من حولك بأنّها حقيقة، ارقدي بين أفكارك ومفاهيمك المحنطة، ودعي الزمن يجري حيث يريد.

شعرت بالإحباط، كانت نظراتك تقول شيئاً مختلفاً، أم أنّي لم أفهم؟ اندفعتُ قائلة:

ـ الواقع أنت تريد جرحي لا أكثر، أهي وسيلة للدفاع؟

أطرقتَ قليلاً، أشعلتَ سيجارة أخرى، وتطلعتَ في عينيّ مباشرة، كنتُ أتحفز للهجوم، لكنّك أسرعت بحماية نفسك، ثبتّ عينين واسعتين تلمعان في العتمة كنصل سكين، وغرزتهما في قلبي، ارتعشت أوردتي للحظة، لكنّي مددت يدي أوقف النزف محاولةً الخروج من تلك الدوّامة بفتح حوار بالكلمات:

ـ سمعت صوت غناء، خيّل إليّ أنّه صوتك.

وكأنّك كنت تنتظر منّي انتشالك من حالة مشابهة، ما لبث سؤالي عن الشاعر أن جعل برودك يخيّم على مسافة التفاهم بيننا. اختصارك الجواب لم يمنعني من متابعة الحوار:

ـ أتدري؟ أنا تربيت على أشعاره، فتحت عينيّ على قصائده في ديوان ((أوراق الزيتون)) كلماته لا زالت محفورة في قلبي (لو يذكر الزيتون غارسه..... لصار الزيت دمعاً)). كنت دائماً أحب أن ألقاه، الظروف لم تتح لي هذه الفرصة.

تأملتني وظلّ ابتسامة يداعب شفتيك:

ـ أنت عاطفية لا ترين الحقائق.

ـ لماذا؟ لأنّي تمنيت لقاء شاعر أحبه؟ وما الخطأ في ذلك؟ الشعر معادل للقضية، وللموت، للمعتقلات والتسكع على الأرصفة وسكنى المشافي، أليس هذا ما أخذه أمل دنقل من الشعر والحياة؟ وخليل حاوي، وغيرهم..

ـ القضية تعني شعباً بأكمله.

ـ والشاعر يمثل هذا الشعب، كلاهما ينتهي صلباً وحرقاً وقهراً.

لم نستطع تقريب وجهات النظر، أنت تراني أبالغ في احتفائي بأهمية الكلمة على حساب الإنسان، (السلاح، الحقيقة الوحيدة)، أنت تقول ما تعتقده حقاً، لِمَ طلبت منك بكلّ غباء أن تعود للغناء؟ لِمَ لمْ أتحسس ـ كالحيوانات الصغيرة ـ ريح البركان القادم، مع أنّ اللهب أحرق وجنتي؟ واحترقتُ بكاملي حين رفضتَ أن تكون مطرباً لجلالة الملكة الآتية من حقول الياسمين لتنظر بعين الرأفة إلى أشلاء شعبها المقهور. يا إلهي كم أنت قاس! عنفك في القول هل يوازي عنفاً آخر في الفعل، أم أنّه حجاب لهشاشة وانكسار في الروح؟ أخيراً قررتَ التنازل عن غطرستك لتخبرني أنّ اللحن لصديق لا أعرفه، لأنّ رصاصة غادرة حجبت عنه الشهرة والمجد، فهو لم يعتد حياة الأقبية، ولم يغلّف صحوه الدخان، كان دائماً في خطوط المواجهة، يحمل البندقية في القلب قبل اللحن.

ـ أنت موتور تحب تسفيه آراء الآخرين، وعندك جنون عظمة، محمود درويش لا يعجبك، مارسيل خليفة تجد فيه ما ينتقص من أهميته، تحمل معول الهدم وتقوّض رموز القضية، ثم لا تنسَ أنّ القتال ليس مهنة المبدعين. لكلّ دوره في المعركة.

ـ آ.. معك حق.

كانت السخرية الواضحة في كلماتك إشارة لأتوقف عن الحديث، (لم أدرك ساعتها أنّه موقف أيدلوجي) سرت ببطء إلى حافة الصمت، دخلت عالمه بتردد، مازال الفضول يحرّك لساني، وعقلي يقول لي: كفى، ما الذي يحدث بيننا؟ أفرشُ لك سهل القلب ياسميناً، و تتصيد الفرص لتعذيبي، دائماً تجد في كلامي ثغرة، تسند عليها سلاحك وتطلق، يخرُّ طائري صريعاً بين قدميّ، تدافع عن نفسك بذات السلاح. انحسرت موجة انفعالك، تمددتَ على السرير واضعاً يديك تحت رأسك، حدّقت في السقف وكأنّك تهرب من مواجهتي:

ـ أشعر بفراغ قاتل، أشعر أنّ ما أعيشه مجرد وهم، أحلام، مخططات فاشلة وأحلام، نملأ الشوارع بالصراخ والتهليل، والمنشورات، والشعارات الفارغة، نثرثر كالعجائز عن الحريّة ونحن نشرب الشاي في المقاهي وننفث دخان النارجيلة، مع الدخان تتسرب القضية، نمضي الساعات الطوال في مناقشات سياسية فارغة، لا مساحة للفعل، ولا حلّ بأيدينا، في داخلي أكوام من الرماد والانهيارات الصعبة، ولا بصيص لأمل قادم. لا.. لا بصيص.

ـ هل يئست؟

ـ يبدو أنّي سأعلن عجزي!

ـ هذا ما يريدنا الاستعمار أن نفعله، أن نتخلى عن القضية ببساطة.

نظرت نحوي بطرف عينك، لمحتُ ظلّ ابتسامة باهتة، تتهمني! تغتالني! تطلب مني الصمت؟ لا أدري لكن هناك اتهام واضح لي بالغباء!

نهضتَ، أشعلتَ السيجارة العاشرة، ضربتَ الحائط بقبضة يدك بقوةٍ أشْعَرَتني بعجزي، فقدت السيطرة على أعصابك.

ـ النسور مقيدة في الأقفاص، سجن طويل لا ينتهي.

ـ أتعتبر بيروت سجناً؟

ـ أنا أتألم لأجلها، أعطتنا كلّ شيء، وبسببنا فقدت كلّ شيء.

ـ أعتقد أنك تُحمّل نفسك فوق طاقتها، بتصورك هل كانت أطماع إسرائيل بلبنان ستتوقف لولا وجودكم فيها؟

نفسك تحمل ركامها وخرابها، ذلها وانحناءها، لسانك يقول نعم، قلبك يرفض الاستماع إليك، أراك تغرق في لجّة سوداء، تختنق، ولا وجود لأوكسجين في هذه المنطقة. لم لا تغادر بيروت؟

ـ كلّ البلاد العربية متشابهة، كلّ بقاع الأرض تحمل نفس الجرح ونفس اللون، ونفس القمع، هل أترك أول حريّة تنفستها؟

طرق الصمت بابي، فتحت له بوجل وانزويت داخل جلدي.

لكلماتك طعم البهار الحار على شفتي تلسعني وألعقها باشتهاء، للحظاتك طعمٌ مالح وأنا أعاني انخفاض الضغط، وقفت زمناً على عتبة أرضك الرخوة، امتصتني رمالك المتحركة قليلاً، وعدت أعوم، أغوص إلى القاع مستنجدة، أصرخ وأعوم، ولمّا أصل إلى قرار! حاولت أن أخوض يمّ حديث آخر ففشلت، حاولت الأخذ بيدك لنخرج من حصارنا، لكنّي فشلت. اقتربت منك وقلبي يرتعش، أمسكتُ بيدك، حاولت فتح قبضتك المغلقة، دون جدوى، سحبتها مني بقوة :

ـ لا أريد عواطف منشّاة.

غاصت سكينك عميقاً في قلبي، وفرّت دمعة من عيني رغماً عني، كلّ ما في الأمر أنّك تخجل من مواجهتي، لماذا لا تنظر إلى وجهي ثانية؟ لأنّك ببساطة أضعف من أن تفعل ذلك، تحاول إيهامي أنّي لا أعني لك شيئاً، وتريني نفسي هشة ومتهافتة، لماذا تفعل ذلك؟ لستُ طفلة، ليس عيباً أن تكون إنسانا، أنا لا أراك غير ذلك، ولا أحلم بمارد

معه الحلول السريعة لكلّ مشاكل العالم، أنت إنسان مثلي، تمرُّ بلحظات ضعف، هذا إذا أردت تسمية عواطفك تجاهي ضعفاً!

تخاذلت ركبتاك، وارتميت على السرير:

ـ هل تستطيعين بيدك الناعمة هذه إيقاف نزفي؟ يدك توجعني، اقتربي ضعيها فوق نزفي.

تأملتُ يدي، يا إلهي! ماذا يريد هذا الرجل؟ غصصت بكلماتي:

ـ أنت مشتت ومتعب، لست مجبراً على مجاراتي فيما أقول.

لانت لهجتك:

ـ ندى، أنا لا أملك مصيري، قبل أن نبدأ يجب أن تفهمي أنّك قد تفقدينني في أيّة لحظة.

وضعت يدي فوق فمك:

ـ كُفّ أرجوك، أنسيت حبك للحياة ورفضك للموت؟ أنسيت ما قلته لي عن عشقك للأرض والمرأة، أم أنّك تعاني انفصاماً في شخصيتك؟

اعتصرتَ جبينك بقوة وكأنّك تعاني صداعاً مزمناً، مقرّاً بمعاناتنا جميعاً من الانفصام، والتشوه. منددا بكلّ كلامي الذي سيبقى حبراً على ورق، تطيّره رياح الواقع، وتذروه رماداً. هذا الحديث العبثي جعلني أفقد الرغبة بالبقاء معك ضمن جدران خانقة.

جلستْ روحك الباردة قريباً من قلبي، الجسد كان بارداً أيضاً! منفصلاً عن حرارة الصيف والرطوبة العالية، وعن نبضي المتدفق بسخونة راعشة. عيناي تفتحان درب الرعشة، وجسدي يهمس مترددا: ((اقترب، أكثر، ازرع في عروقي شوق السنبلة إلى ترابها، اقترب، مد يدك إليّ جسراً لأعبر بتقلباتي وعواصفي إلى شاطئك)). همست بحرارة:

ـ أحبك.

على عنقي تماماً تُقرر أنفاسك بدفء موضع الذبح، تخرُّ دمائي بسرعة، وأنتفض، تتابع شفتاك دقائق اغتيالي الأخيرة، تقتربان من عينيّ، تمرّان كطيف ملائكي يحلم بعناقيد من الحبّ والشهوة، تفتحان الجرح حتّى الارتعاش بقبلة مرّة، تتسرب إغماءة اللحظة إلى أعصابي، وتشتعل الرغبة في أصابعك، تقترب مني أكثر، تلتهب الحمى في عينيك، ترسلها إليّ ارتعاشات مستعرة، تهمس شفتاك:

ـ أطفئيني، أشعر أنّ ناراً تأكلني، أمطري حنانا وأطفئيني.

تمتد يدك، تغوص في ثنيات الثوب :

ـ أشعليني، دعي أرضك الرحبة تمتصني، ضميني إلى صدرك، أشعليني، دعي رملك يختلط بموجي، وأطفئيني.

تشتعل، عيناك تصبّان الزيت، والنار تأكل أطرافي، أحتويك بين شفتيَّ المحترقتين، وأصابعك تزيد النّار اشتعالاً... عيناك لا تتعبان، تنده بعطش، فأسمع الصدى في أحشائي:

ـ أطفئيني.

و معاً ببطء... نطفئ شمعتنا الوحيدة.

6

لو كنتَ لي في زمن القحط؟ هل كانت تلك الأزمات القاسية ستوقف زمني عند حدود الغباء والتقوقع على الذات؟ لو كنت صديقي في زمن الاضطراب المر، هل كانت الأعاصير الشرسة تسرقني من رقتي وطيبتي؟ ذلك الجانب الإنساني فيّ، كم كنت أمقته! ذلك الركن

الخفي في نفسي الذي عرفتَ كيف تضيء عتمته، كم أهملتُه وتجاهلت وجوده!

يا أنت، حصاركَ وحصاري واحد.

كبر الحصار، تجاوزني قليلا فكانت مساحة عينيك الوطن، وكنتُ الضحية، لا تفتح هاتين الواحتين المخضلتين بالندى دهشة، لأنّ مساحة عينيّ الوطن، وأنت الضحية!

حصارك بات الأصغر، الحصار الحلو، حصار الوطن بات الأكبر، الحصار المرّ، وأنفاسي تضطرب في صدري وتضيق مساحة الوطن!

هناك في قاع القلب يخفق بك مضطرباً شيء لا أعيه، أحبّك أيّها الملتحم بعروقي منذ دهر بعيد، تراه كان دهرا؟

يا بحري، تنبض فيّ دماً حارّاً ورعشة ممتعة، يا سفني، فيّ شوق للسفر، والبحر والمرافئ الشتوية المقفرة، ووحدك في الجزر النائية تنتظر قدومي، يلوح وجهك من الضباب الكثيف، يخفق قلبي، تقترب، تقترب، تنتفض ضلوعي، تقترب، يضرب الدم مساحة وجهي بلون من الحبّ والتألق، تقترب، فأغيب عن الوعي، يا أنت... يا ذاك العالم الصغير الذي أتشبث بملامحه الهلامية الغامضة بكلّ قوتي، تلهث أنفاسك معلنة: ((أحبك يا مجنونة)) ومع كلّ نسمة تخرج من صدري أصرخ: ((أحبك بجنون)) ولأنّ للدمع طعم الفرح أحياناً، أبكي على صدرك، ولأنّ له رائحة الصحو، يمتزج بابتسامتي، أقول لك بلغة الدمع، ولغة الصحو: أحبك.

تهرب الدقائق من زمني وأنا أنتظر، تشاكسني الشمس بحرارتها، يمدّ الموج لسانه ساخراً: ((لن يأتي)). لمحتك قادماً من بعيد،

ارتعشت أطرافي، ركضت نظراتي تترصد خطواتك عبر الطاولات المكتظة في المقهى:

ـ ماذا حدث؟ مرّت ساعة وأنا أنتظرك! قضيتها بأحلام يقظة كالمراهقات، ما الذي أخّرك؟

سحبت الكرسي، تهالكت عليه وكأنّك جريت مسافة طويلة:

ـ لا شيء مهم بالنسبة لك، تأخرت بسبب ظرف طارئ، وخشيت ألا أراك في انتظاري.

تناولت فنجاني بيد مرتعشة، كلّ شيء يخصّك يهمني، ثم كيف أذهب دون أن أراك؟ هذا مستحيل. رفضت فكرة عدم مجيئك، كنت على استعداد لانتظار أبدي، والبحث عنك في كلّ مكان، حرارة صوتك المؤكدة على عدم الذهاب إليك بدون موعد، حرقت أطرافي، وتساقط رمادي أرضاً!

تناولتَ يدي، اعتصرتها بشدّة وأنت تضغط على أسنانك:

ـ أرجوك، لا تهدري الوقت بهذه السفا سف، أنت تدركين ما أردت قوله، انهضي، أريد أن أمشي في الهواء الطلق بعيداً عن الدخان والعيون.

خرجنا من المقهى، تسرع خطواتك، وتلهث أنفاسي، شكلنا كان مضحكاً، لكنّ الضحكة تلاشت في زمن ضبابي لم أعد أستطيع اختراق لزوجته المرعبة.

أحطت خصري بذراعك وشددتني، استسلمت، تركت جسدي يسير طيّعاً، حيّاً، مرتعشاً، وأنت تحيطه بكلتا ذراعيك واحدة على الخصر والأخرى تمسك بيدي قريباً من القلب المرتجف، استلقينا على الرمال في مواجهة البحر، ارتخت ملامحك، ورحت تعبُّ الهواء وترسله بعمق، عيناك مغمضتان، وأنا أرقب انعكاس الشمس فوق

ملامحك السمراء، وأتعبّد بصمت، ألج بوابة الكآبة برهبة الآلهة، وحزن منفي وحيد.

اتكأتَ على ذراعك، فتحت عينيك ببطء، مددت يدك اليسرى إلى عنقي، وغسلني حنانك، أغنية، فأغرودة، فقبلة.. التحم صمتي بنظراتك العميقة، سبحنا في دنيا الحلم، وتمددنا على ضفة الدهشة، مددت غيومك في سمائي، وأرسلت أمطارك في شقوق أرضي العطشى، فتفجرت عيوني ألقا ورعشة ناعمة، أنا ربّة الخمر، في هذه اللحظة نضجت كرومي، وتعتق عنبها، وفاحت رائحة النشوة من عناقيدها، تعتصرني فأغيب عن الوعي، وأقطر في فمك، قطرة.. قطرة.. وأذوب، ولا يبقى من شراستي سوى أسطورة كانت تتناقلها الكروم في أمسيات الصيّف الحارّة عن فتاة عشقت البحر بجنون، فمنحته نفسها ذات مساء، وغابت في أحضان موجه الغامض كسفينة تائهة وغريبة، ما يزال البحارة يسمعون أنينها في عتمة ليالي الشتاء الكئيبة. عشتروت تولد فيّ هذا العصر القائظ، هل قلت أحبك؟ هذا لا يكفي، أنت جزء من دورة أرضي، يجذبك جزري إلى الأعماق سمكةً صغيرة تسبح قريباً من حقول المرجان الأحمر، تقضم أعشابي بأسنانها الحادّة، وتتنفس من مائي.

هزّتني يدك بلطف، فاستيقظت من حلمي المتعب، تطلّعتُ بعينيك، أحلم بشخص روحه تلاحق حلماً مستحيلاً، وجسده يرتعش بين أصابعي..!

أمسكتَ كفي:

ـ هل أنا بعيد عنك لهذه الدرجة؟

ـ بل قريب، انظر، هنا في باطن كفي، أرأيت؟

ضحكت متجاهلاً كلماتي، محوّلاً عينيك صوب البحر،استقمتَ في جلستك ورحت تخطّ حروفاً في الرمال، قبضتَ حفنة من الرمل وتركتها تتسرب ببطء من أصابعك :

ـ هكذا سنفترق، هكذا سننتهي في غفلة من الزمن بسرعة كما التقينا! لا أصدق، ندى!

اغتصبتَ ابتسامة عابرة متسائلاً عن إمكانية لقائنا في الغد..!! كنت أفكر بأكثر من الغد، تفاصيل علاقتنا السريعة تثير قلقك واستغرابك، رغم ضحكي وأنا أهمس لك وأشير لسيّارة أجرة:

ـ نحن في عصر الشطائر، لم يعد لدينا الوقت الذي امتلكته جداتنا، لنعشق من وراء النوافذ المغلقة، أم أنّك تحن لنظرة فابتسامة فموعد فلقاء؟

ضحكت بصوت عال أغاظ سائق التاكسي الواقف بانتظار عبورنا الشارع إليه، ضمَّنا المقعد الخلفي للسيارة بحنان، التصقتُ بك وأنا أرقب الأشجار الهاربة على الأرصفة ووجوه النّاس المتلاحقة بغرابة خلف النافذة، وشارات المرور وواجهات المحلات، ويدك تحدِّث يدي حديثاً ذا شجون.

وصلت البيت، تركتني أغادر السيّارة وحيدة، بحثت في جيوبي عن المفتاح، لم أجده، طرقت الباب، أطلّ رأس صاحبته البدينة من وراء خشبه العتيق، رمقتني بارتياب، وفتحت فمها متثائبة وكأنّها استيقظت للتوّ:

ـ جاء أحدهم وسأل عنك، ترك لك ورقة وحقيبتين.

دخلت غرفتي وأغلقت الباب، استلقيت على السرير بملابسي وحذائي، كنت أشعر أنّ التعب ليس السبب في الحالة التي تسيطر عليّ، حاولت النوم، فرَّ مني، ولم أستطع اقتناصه.

صنعت فنجاناً من الشاي، وجلست لأكتب، ازدحمت اللحظات، تصارعت شوارع صبرا وشاتيلا في مخيلتي، هجم عليّ شبانٌ غاضبون قتلتهم البطالة، والأزمات المتلاحقة وسحقت أحلامهم الحرب، فراحوا يبحثون عن السلاح كحل لا بديل له، فاجأتني نسوة التحفن القهر ونسجن منه أكفاناً لمستقبلهن، ورأيت نفسي عاريةً وسط كومة من الجماجم والأنقاض، تندفع السكاكين صوبي، تنغرس في لحم الورق الأبيض، ينزف حبره صديداً، وأقذاراً، ودخاناً، صحوت فجأة، لست مخطئة هناك رائحة حريق! لم يكن من أعصابي ولا من الشوارع الّتي ازدحمت بها مخيلتي، آه القهوة! صفعت جبيني حين تسربت رائحة الغاز الخانق، ركضت إلى المطبخ، أغلقت الأنبوبة، السعال القاسي رماني خارج البيت.. وقفت أمام الباب لدقائق، ناداني البحر ((ارمي أقلامك وحبرك، اتركي كلّ شيء وتعالي)) وما الفائدة؟ وعيناك لن تراقبا معي آخر أشعة للشمس وهي تنحدر وتغوص في مائه تاركةً وهجها على ملامحي! ما الفائدة؟ ما دامت يدك بعيدة لن تمتص مسامها حبّات العرق العالقة بين أصابعي، ما الفائدة ما دمت وحيدةً والفراغ؟ النسمات الصيفية تطبق على صدري، تلهث أنفاسي، وتفتر أطرافي. رغبةٌ ملحة في النوم، يبعدها القلق عني. دخلت الغرفة ثانية، وعدت للكتابة، هاجمتني أنفاسُ البحر مثيرة حارّة، فأغلقت النافذة، سكن ملحه تحت جلدي، حاصرتني حشرات صغيرة مزعجة، واهتاج الجلد محتجا رافضا دون جدوى!

انفجارات بعيدة أطاحت بيقظتي وأشعلت قلقي ودفعتني للغوص في الفراش من جديد.

في الـصباح حملـت حقائـب زميلـي الثقيلـة، واتجهـت إلى كـراج التاكسي.

ودون أن تمتـد يـدك لـوداعي، ودون أن أذرف دمعـة، ودون أن أحاول رؤية البحر للمرّة الأخـيرة معـك، جلـست في الـسيّارة، فتحـت إحدى المجلات، ورحت أتـصفحها هاربـة مـن رؤيـة ملامحـك الّـتي تحاصرني ومن مشاعري الّتي تكبل يديّ وجسدي كله.

هاربة من قصّة حبّ، تفتحت بذورها في قلـبي، وقيّـدتني إلى عـالم مجهول لا أنتمي إليه، ولا أعرف تضاريسه. لكن إلى متى؟

أوّل الجمر

1

وصلتُ دمشق حوالي السابعة مساءً

هجم الحرّ بلفحاته المزعجة مفرغا غضبه في جعبتي المكتظة بالخيبة والكآبة، أردت أن يطول الطريق، التمست الظلّ المنسكب على الأرصفة، داعبتني بعض النسمات المسائية الفاترة، هبّت خفيفة واختفت، عبرتُ عدّة شوارع، توقفت فجأةً لدوّار ألمّ بي، تلفتّ حولي، اتخذت هيئة مسافرة غريبة، وسألت أحد المارّة المساعدة، كان غريباً يبحث عن طريق يوصله إلى قلب المدينة! اقترح عليّ بدعابة أن أستأجر تاكسي وأخرج من ورطتي! ما الذي أدخلني متاهة الشوارع الفرعية؟ تنفست بعمق حين رأيت سكّة الترين القديمة، لقد وصلت أخيراً.

هاهو منزلنا العتيق يطلّ أمامي بلونه الرمادي المائل إلى السواد، وجارتنا في الشرفة الملاصقة تعتني بعصفورها الملوّن، والستارة الّتي تغطي باب الشرفة تداعبها النسمات كاسرة الحاجز بين الغرفة والعالم

الخارجي. رمقتني أصص الزرع بأعينها الغريبة، شرطي المرور مزروع في نفس الزاوية، لماذا أشعر أنّي أرى هؤلاء النّاس للمرّة الأولى!

ابتسمت للشرطي بشرود، وصعدت درجات بيتنا المهشمة. تسابقت إلى سمعي دقات الآلة الكاتبة من مكتب جارنا المحامي، تجاوزت بابه المفتوح، استقبلتني الدرجات الخشبية الضيّقة، صرّت تحت قدميّ، يا إلهي لماذا تعزف أنغامها الجنائزية تحت قدميّ باستمرار؟ بلعت غصّةً كاوية، وتابعت صعود الدرجات المغطاة بقماش بني اللون، وقفت أمام فسحة ضاقت بحقائبي، طرقت الباب الخشبي بقدمي، أطلّت أختي الصغرى بوجهها المائل إلى الصفرة، صرخت فرحة، وتناولت مني أصغر الحقائب، أحنيت رأسي إجلالاً لبابنا الواطئ.

دخلت غرفة والديّ، سلّمت على أمي المريضة، قبّلتها، اقتربت من النافذة وأنا أسأل عن أبي، مع أنّي أعرف طقسه اليومي فهو في هذه الساعة ينتحي بصديقه العزيز في ركن من المقهى ليلاعبه على كأس شاي! يا للأيام!

نظرت من النافذة الوحيدة في الغرفة الّتي تطلُّ على مساحة خالية من البناء تحاصرها أبنية على الجانبين، ابتسم شاب في الطابق الخامس المواجه لي، ورفع صوت المذياع، أغلقت النافذة وأنا أرتجف، لماذا لم أعد أرغب بسماع أغاني عبد الحليم الآتية من نوافذ الجيران؟ لماذا لم تعد هذه التصرفات الصبيانية تثير ابتسامة لا مبالية على شفتي؟

اندفعت إلى الصالة مدارية ارتباكي. ركضت أخواتي الثلاث لفتح الهدايا، وإعداد الحمّام والطعام، دخلت غرفة الجلوس، ارتميت على أريكة جدتي العتيقة، صافحني وجهها الباسم في البرواز على الجدار

المقابل، بجانبها زكي أفندي بطربوشه الأحمر ووجهه ذي الملامح المحايدة، وعلى يمينه صفّ من صور الراحلين!

هجمت عليّ تلك الصور التي ارتاحت على الحائط في صبرا، مخترقة استرخائي وأمني، زوج عمتك الشهيد و... انبعثت صبرا تسير في موكب جنائزي، هبّت آلاف الجثث من قبرها الجماعي تصرخ في وجهي، وحطّت غربان فوق الشواهد الكئيبة، انتشرت رائحة تآمر نتنة زكمت أنفي، ومنظار يترصد على سطح بعيد. دقت كلماتك عن المذبحة عنقي، تضاءلت أنفاسي، اختبأت في رئتي، طلعت صورة غامضة الملامح، زرعت في قلبي نظرة شرسة واستدارت صوب البحر، ارتفعتْ وسط المدّ الهائل قبضتك المغلقة على ألم لا ينتهي! وسحبني صوت رشا من تصوراتي الموجعة إلى الحمّام.

كان الطقس الحارّ يدفعني بيده الثقيلة إلى الاستحمام، أحسست بيد العتمة تخنقني رغم النور المتسرب من المصباح الكهربائي المتأرجح فوق رأسي، ضاقت بي مساحته الصغيرة، وأطبقت على أنفاسي، كنت في الماضي أستحم بسرعة، اليوم جلست على المقعد الخشبي الواطئ، واسترخيت، رحت أغرف الماء من الجرن الحجري الذي لا أعرف أيّ بطل استطاع حمله إلى الطابق الثالث ووضعه في هذا الحمام الصغير! أسكب الماء فوق رأسي بآلية ولا مبالاة، حاولت نفضه من الصور القاسية العالقة به، لم أستطع، شعرت أنّي بدأت أتغيّر، وأنّ شيئاً في داخلي يشدّني إلى منزل آخر وحياة أخرى. طرقت أذني كلماتك المتهكمة عن رفاهيتي وأناقتي، آه كم جرحتني، لم تعرف أنّي البنت الكبرى لعائلة فقيرة ومحافظة لا تستطيع تأمين الحاجات اليومية إلا بمزيد من الركض والتعب والإرهاق، وأنّني المعيلة الثانية

في هذا البيت، والصحافة لم تكن هواية وهمّا فقط، بل مصدر رزق لثلاث فتيات وأب متقاعد وأم تعاني من ارتفاع الضغط والسكر!

آه لو تعرف أنّ سبب سفري الأوّل إلى بيروت هو المبلغ الذي سآخذه كمهمة فوق راتبي المتواضع، لكنّي لم أعرف أنّ هذا السبب المادي سيقودني إلى لحظة الانفجار تلك، التي اصطدمت فيها عيناك بجليدي، فتناثر في الأفق ياسميناً وفلاً، وتساقط في روحي. كم من السخرية ستطالني؟ وكم من الانكسارات ستقتحمك؟!

خرجت من الحمّام، وأنا أشعر بالعطش الشديد، دخلت المطبخ، فتحت الحنفية، الماء مقطوعة! اللعنة، لعنة الماء تلاحقني في كلّ مكان، علّقت شقيقتي الصغرى التي كانت تنظف الصحون من حنفية الخزان البيتي:

ـ دورنا في الرابعة، أمنَ الضروري أن تشربي من مياه الفيجة؟

عدت إلى غرفة الجلوس التي تتحول ليلاً غرفة نوم لشقيقاتي. كانت أختي الصغرى تنظّف أوراق الزرع في الأصص الفخارية الكبيرة، إرث جدتي، التي نقلت روح دمشق القديمة إلى هذه الجدران الباهتة، طلبت منها كأس شاي، وانعطفت في الممر الضيق لأذهب إلى غرفتي، وكعادتي تعثرت ببلاطة متمردة علت قليلاً عن مستوى الأرض.

دخلت غرفتي المثلثة الشكل بنافذة عالية تطلّ على الشارع، هذه الغرفة شهدت أواخر أيام جدتي ولحظات احتضارها، و قضت فيها أكثر من نصف عمرها عندما كانت مطبخاً! لم يستطع أحد أن يدخلها بعد وفاتها غيري، منحت امتيازاً بسكناها بعد أن أصبحت عضواً منتجاً في العائلة.

استلقيتُ على السرير الوحيد، مددت يدي إلى المكتبة الملاصقة له التي غطّت الجدار المتآكل نتيجة نزع رفوف المطبخ.

جاءتني رشا بالشاي، شربت القليل، تساقطت حبات العرق من جبيني، اقتحمتني رائحة الفل من النافذة ممزوجة برائحة الخبز والذكريات.

تسرّب النعاس والتعب إلى جفوني. يحضنني حرّ حزيران، وتمتدّ يداك أكثر برودة وإرهاقاً..

2

مرّة ثانية هاجمتني روائح القتل ببشاعتها وأنا أنزف ذكرياتي على الورق. لا أستطيع نسيان تلك الصلابة الّتي واجهتني بها عيناها الرماديتان وهي تروي ما حدث بحياد قاتل.

((على وقع الخطوات المتسللة، استيقظ قلبي، بعنف طرق الباب، قبل أن تمتد يد أحدنا إليه، دفعته قدم همجية، صوتٌ شرس صاح بنا: (تجمعوا بسرعة، أين المجرمون؟)

تطلّعنا بعيون مفزوعة ببعضنا، مجرمون! من؟

كاد أبي يفتح فمه ليسأل عن هؤلاء، رصاصة خرجت من مكمنها واستقرّت في أحشائه، الأحمر انتشر مُفجّرا احتجاجه الصامت، سال بكآبة مفجعة، اخترق صفاء ثياب الصلاة البيضاء، أعلن بحزن عن دموع تآكل وجعها، وتراجع تحت الجفن.

نهضتْ أختي الصغيرة من حلمها على صراخ الرصاص، النعاس في عينيها، ينسكب الظلُّ فيهما، ويورق الياسمين، عركتْ عينيها، ابتسمتْ بطفولة لفزعي، نظرتْ إلى أسلحتهم، ولباسهم، كان المنظر غريباً، رأته لأوّل مرّة.. يوماً ما على كتف الدفء والذكريات حدّثتها

جدتي عن جنود بأسلحة بغيضة، لم يستطيعوا اقتلاع جدي من التراب. تبدأ الحكاية ((هناك في بيسان نجمة وحيدة ترقب المساء الآتي بمزيد من الغموض والقلق، هناك تحضن خوفها وترتقي المئذنة العالية، تختبئ في نوافذها الضيّقة، هناك في بيسان!! وتدمع عينا جدتي وهي تتنهد : جاء جنود بأسلحة غريبة، جاء جنود يحملون الدمار وبطاقة تشرد، هناك نجمة وبيارتان! هناك تشبث دمه بالتراب وارتفعت جثته إلى السماء!

كانت تفتح عينيها دهشة وهي تتصور جثة ترتفع إلى السماء، يرفعها بساط الريح كما في الحكاية! تتنهد جدتي: أبوك كان صغيراً. لم ترَ الفزع في وجه والدها، لم ترَ الأحمر الذي امتدّ نوره إلى الجدران فاتسعت لتشمل الشارع والحي، وذكريات نابضة في الروح، انسكب صوت فيروز هادئاً في أذنها كحقول الزنبق الغض ((هناك في بيسان)). تقدّمت غير آبهة بنظراتهم الشرسة، لمست بندقية أحدهم ببراءة مفزعة وهمست: أتشبه تلك التي قتلته في بيسان؟

حتّى تلك اللحظة لم تستوعب مخيلتها الطفلة معنى القتل، اقتربت أكثر، نظرات الجندي سمّرتها، هاهو القتل، نظرة تطلق سهاماً مسمومة تنحدر في القلب الصغير فيتجمد كلّ شيء، أهذا ما أصاب جدها فبقي متشبثاً بالتراب؟ فجأة ركضت إليّ وكأنّها وعت معنى ما يحدث بسنواتها الثلاث، ركضت طفولتها تصرخ وارتمت في حضني، هزّتها الدموع، تشبثت أصابعها بثوبي، شدّته.. تراخى جسدها، نفر الدم حاراً غزيراً، تلطخ ثوبي، انساب على الأرض، همدتْ في بحيرة داكنة، وعيناها شاخصتان إليّ تحملان سؤالاً مرّاً، وأنا أحاول بيدٍ مرتعشة لمس جسدها المسجى، سبقتها فوهة البندقية، لامست صدري يصحبها صوت لاهث:

ـ وأنتِ؟

علت أنّات والدي الذبيحة، مدّ يده إليّ في محاولةٍ يائسة لإبعاد الموت القادم، لكنّ رصاصة أخرى استقرّت في يده فارتخت مرتطمة بالبلاط الحار.

امتدت يد أولهم، نزع الثوب، علا صراخي، لكنّي لم أسمع صداه!

لم يكن هناك وقتٌ لأفهم، لم يكن هناك وقتٌ لأطلق أنفاسي دفاعاً عن وجودي، لم يكن هناك وقتٌ لأرى وجه أبي، تراكمت الأحذية فوق جسدي المطروح أرضاً، كلّ حذاء حاول أن يترك بصمة أكبر، وأوضح، كنت أحسّ نظراته تلسع ظهري، لم أشعر بما حدث، فقط نظرات أبي كانت تتابع اغتيالي بقسوة، وبنفس التوحش توقف نبضي.. توقف كلّ شيء عند أمسٍ بريء صاف، لم يعد لي.

غاصت الرماح في جسدي، رمحاً إثر آخر..

عندما التحمتُ بالغيبوبة، ودخلت الهوة القاتلة، كانت آخر النظرات الشرسة تفرغ شحنة شهوتها القاسية في جسدي.. ما هو القتل؟ كلماتها البريئة ترن قوية ساخطة مدمرة ((ما هو القتل؟))

خنجراً إثر آخر تلقيت موتي، ألماً وراء آخر، تراكمت جثث إخوتي... وجدتي.. وأبي.. وبراءة السنوات الثلاث. فتح الصحو عينيّ على المشهد الدموي المقزز، بطني تنزف صديداً..بطني تفرز المأساة قيحاً.. ألماً... وسائلاً نتناً يحمل بصماتهم!

..... رميت القلم جانباً، كان حضور سحاب في أوراقي فوق طاقتي على احتمال الألم!

3

يا ليت ذلك المساء الدافئ لم ينته.

يا ليتني بقيت ملتحمة بأفقٍ يخبو وينحدر إلى البحر ويتلاشى، يا ليت!

تخنقني هذه الكلمة، تمدّ أظافرها الحادّة إلى حلقي بلا رحمة، أتطلّع إلى المغيب، وأشعر بأنّ شيئاً حارّاً يهوي في قلبي، وينتحر برصاص البعد والقلق، تبتسم خصلة حبق في أصص وردي، تشاغلني عنك، تدفع أفكاري بأناملها الغضة نحو حلم جميل، أتخيّل فيه أنّك قريب، قريب، تنهشني غصّة كاوية، تفتت لحمي، أتناثر قطعاً من نار، يلتهب فيّ شوقٌ لا يعرف حدوداً، لكنّي أطرحه بعيداً، وأبتسم.

ألم أتعوّد بعدك يا قريب؟ ينغرس السؤال في أحشائي بسخرية مرّة. مرّت أيام لم أعد أعرف إن كانت طويلة أم قصيرة؟ كنت أحاول تناسيك بإصرار، تتسرب رائحتك مسكرة، أطبق رئتي عليها وأغمض عينيّ على لون الدم الأحمر الذي ضرب مساحة الوجه بعنف.

هل ما زلت قادرة على الارتعاش خجلاً لذكراك؟

مرارة تنبعث من أعماقي، وتتلوى على لساني بسخرية، جبل الجليد الجاثم على صدري يتحدى، أنفاسي تتحدى، قلبي اللاهث يشهد أنّ ما يحترق الآن في حلقي رمادُ ذاكرة تلفظ أنفاس جمرها، مطلقة للقلب حرية البوح، متحدية بقايا تصميم وثوابت بالية! حاولت إقصاءك عن احتراقها، فسكنتَ تحت جلدي، سريتَ في عروقي دماً ينبض بالقلق والرغبة، قفزت في شرايين لحظاتي، بحدّ سكين رقيقة ذبحت خوفي وترددي ورميته في ركن معتم منها، ها هو صحوك يغمرني بألق لحظاتنا، ها هو يشعل فيّ الجمر البارد، ويهبّ ريحاً منعشة تتغلغل في الضلوع، فتتمطّى مشرعة فرحها سلاحاً في وجه الوقت والمسافة، والبعد.

منذ عرفتك وأنا أشعر أنّ في داخلي أنثى ناعمة تملك القدرة على خفض عينيها أمام نظراتك، وتملك الاستعداد لأن تبكي بحرقة على صدرك، وتملك اليد التي ترتعش، والقلب الذي يقفز فرحاً، والعين التي تتألق شوقاً، والوجه الذي يحمرُّ خجلاً!

كلّما جاء المساء، التجئ إلى عزلتي معك، وتنزف أوردتي ذكرياتنا، أمسك جريدتي، وأجلس في الشرفة على كرسي خشبي صغير، أراقب المارة والشرطي الواقف عند الشارة أمامي، والنّاس في حركتهم المسعورة ركضاً وراء حاجات الحياة، أسند ذراعي على حجر الشرفة القديم المليء بالحفر، وأراك ترشح من جلدي عذاباً، ورعشة، وترقباً!

لم أغسل قلبي من وجعك هذا المساء، تشربني حتّى الثمالة، فألتصق بك، وأنعتق من زمني، وأبتعد عن بعدي عنك، تنقسم روحي، فأراني أعيش في مدينتين متنقلة بين شك ويقين، " كلّما آخيت مدينة رمتني إلى محطة سفر "، كم أمشي إلى حلم فتسبقني الخناجر، تطعنني حتّى الدفء والارتخاء، تزورني تلك الرؤى الغريبة لكوابيس لم أعشها، لكنّ أصحابها حفروها في ذاكرتي بحروف من نار وبارود، يختلط الحلم بالواقع، أنت وأنا، وأحتار في اختيار ليس لي فيه خيار.

في الحلم الأمنية، تختارني حبيبة، في الواقع الحقيقة تفصلنا المسافات، ويقرّبنا الشوق، عندما يكون الحلم قدراً، تنزرع المسافات إليه بالألغام والزجاج المكسور، أمضغه وأشعر بالدم الدافئ يسيل على شفتي، فتلتهب بهما حمى سكنتني مرّة واحدة، مرّة أحسست فيها أنّي أنثى فقط، وأنّي أشتهيك كما أشتهي رغيفاً ساخناً يبتسم على فم تنور مستعر، تتسلل إليّ رائحة تراب بلله المطر، تتغلغل في روحي،

وأكتم جوعي، تشدّني أيامك فأغفو كلّ مساء على لحظاتها مستسلمة ليديك الدافئتين..

كم هو رائع طعم خبزك والجوع يجتاحني! الجوع؟ رائحة الخبز في الفرن المجاور للبيت تداعب أنفي، لكن لا رغبة لي في ترك مكاني، أنتظر طيفاً من الغيب ينسكب بروعة في أعلى الشارع المقابل لبيتنا حاملاً معه كمشة ياسمين، وآمالاً صعبة التحقيق.

يطفئ المساء قنديله ويرحل.

وتبقى أنت دافئاً في صدري أوجاعك طاقة بنفسج وورقة حبق صغيرة. تشعل شمعتك في ذلك البيت البعيد، فيغمرني الحنان، آه لو أنّك قريب!

هذا المساء معجون برائحة ماض قريب، أقرأ في صفحاته الدافئة أيامي القادمة معك، ويحضنني ليله بألفة، ويتغلغل نسيمه في ضلوعي، فأشعر أنّ ارتباطي بالحياة بدأ يتجدد فيك، وأنّني بدأت أشعر بكلّ حواسي معنى الوجود، إلاّ أنّ انفصاماً كاملاً عمّا حولي بدأ يتسرب إلى أيامي. أقوم بعملي اليومي بآلية كاملة، دون تفاعل مع من حولي. أتلمس الطريق بعينيّ، لعلّ...

أراك تبتسم في واجهات المحلات، في الحافلة الّتي أستقلها إلى عملي يومياً، فوق كومة الخضار على العربات، في وجوه زملائي في العمل، تختبئ خلف كلّ باب أفتحه، في مكتبي الصغير، في أدراجي وأوراقي، وفي سطور المقال الذي أكتبه.

دوار بسيط يسحبني إلى الرملة البيضاء، تحاصرني عيناك، يتقاطر عسلهما شهداً على شفتي، تتوه مني الشوارع، اختلطت الأزقة، تنفر الأرصفة مبتعدة عن قدميّ المتعبتين، تتشوّه وجوه الباعة، الجيران،

الدرجات الخشبية، الشرفة، وأرتمي على الكرسي الخشبي الصغير. كلّها أشياء باهتة، لا لون لها. عيناك تبسمان للرمل، ويعلو الموج.

فمتى، متى ينتهي حصارك لأيامي؟ متى أستطيع خلع رأسك عن جسدي؟

متى ستمدُّ إليّ أصابع الشوق مغمسةً بالحناء وماء البحر؟

4

للمرّة العاشرة أمزق الأوراق المشوّهة السطور.

للمرّة العاشرة، أعيد ترتيب الحروف والأسطر، والأفكار، ولا أنجح في جعلها مقالاً متماسكاً.

للمرّة العاشرة، أشطب صورتك من السطور، فتفرّخ آلاف الصور الصغيرة، متحدية صبري وتجلدي، هازئة بأعصابي وتفكيري، فأخشى رميها في سلة المهملات!

للمرّة المائة، أبعدك عن ذاكرتي، فتخضرُّ بك حقولها، وتنبت كأقحوانٍ وسط مروجها الشاسعة.

للمرّة الألف، أنفيك من شراييني، فتعتقلك مسامات الجلد، وتغلق عليك زنازين الرغبة.

أغلق عينيّ محاولة استحضار صور الحروف المبهمة، تشتدّ غموضاً، وتفرّ تاركةً لك مساحة العين، ورعشة الجفن، واختلاج الروح.

يدٌ صلبة تخبط المكتب أمامي بقوة. أعتدل في جلستي مذعورة، تطالعني عينا مدحت تنظران إليّ بقسوة، يخبرني هازئاً أنّي سأنال وساماً هذا العام حال مقابلتي لمدير التحرير.

آلمتني سخريته، كنت أعرف ما وراء الكلمات، وأدرك سر تلك السموم الّتي يغمس بها كلماته قبل أن تصل أذني، تجاهلته، واجتزت المكتب الغاصّ بالأوراق المبعثرة والجرائد وفناجين القهوة الباردة، وأنا أتساءل ببرود إن كان يعرف ما يريده مني المدير. خفت حدّته قليلاً، تطلّع في وجهي وكأنّه يراني للمرّة الأولى، ورفع كتفيه نفياً. حين طالعني وجه مدير التحرير خلف نظارته السميكة، أدركت أنّي ارتكبت خطأً شنيعاً، ابتسمت شفتاه ابتسامة ساخرة، وتقلّصت عضلات وجهه، وهو يسألني عن الهراء الذي كتبته. لقد راجعت مقالي حرفاً حرفاً متأكدة من ذلك.

اشتدت تقلّصات وجهه بروزاً، حين عرض عليّ التأكد من الموضوع الذي طلبه مني. رمى الأوراق من يده بعصبية:

ـ وهل طلبت منك قصيدة شعر تعددين فيها محاسن أزمة السكن، ومعاناة المستأجرين وأصحاب العقارات؟

لجمتني كلماته الساخرة، لا بدّ من وجود خطأ، ماذا فعلت يا ترى؟ تابع هجومه جامعاً أوراقي المبعثرة على مكتبه، وأعطاني إياها وهو يقول:

ـ يستحسن أن تلقيها في أمسية شعرية في المركز الثقافي، وستجدين هناك الكثير من الحمقى الذين سيعددون محاسن قصيدتك السريالية التي أسقطت فيها الرمز الأسطوري على الواقع المر!

كادت الدموع تطفر من عيني، إذ اكتشفت أنّي خلطت أوراق المقال، بأوراق كنت أكتبها لك، وإذ انتبهت إلى حماقتي تلك،

فاجأتني حماقةٌ أشدّ إيلاماً، لقد كنتَ تنبت كعشبة برية بين السطور، وتسكن في تفاصيل قانون الإيجار. لم يكن مدير التحرير مخطئاً. أغلقت باب مكتبه بهدوء، انسللت في الأروقة محاولة إخفاء نفسي عن العيون المتسائلة، تعثرت بكرسي مكتبي قبل أن أجلس عليه، وكانت عينا مدحت شاخصتين إليّ ترصدان كلّ انفعالاتي، سحب كرسيه واقترب من مكتبي، همس بحنان مفاجئ:

ـ ما بك؟ أرجو أن لا تكوني قد تشاجرت معه؟

تمتمت بصعوبة، والكلمات تتعثر في حنجرتي، أشواكاً تدميها، فتنزف عارضة انكساري على الآخرين بأنّ ما حدث سوء تفاهم لا أكثر.

ـ سأراك بعد الدوام.

لم يترك لي الفرصة للرد، نهض مبتعداً عن مكتبي، تشاغل بحديث مع هند، ثمّ خرج. سحبني الذهول والقهر إلى ضفته ثانية، فقدت القدرة على التركيز، ما معنى أن أرتكب خطأ كهذا؟ الأمر يخيفني، أيقظتني كف هند المسندة إلى كتفي من ذهولي، انتفضت مذعورة، ضحكت هند ضحكة صافية مجلجلة كعادتها، وأعادت السؤال:

ـ ألهذه الدرجة تحبينه؟

ـ من؟ أنا؟ أحب من؟

غمزت بعينها بمكر:

ـ وهل أسألك لتجيبي بسؤال، أنت ستقولين لي من؟

وتابعت مغيّرة نغمة صوتها:

ـ على كلّ حال، لستُ بحاجة لإجابتك، كلّنا نعرف، لكنّنا ننتظر أن تخبرينا.

انتشلتني لهجتها الواثقة من دهشتي وأدخلتني دوامة الحيرة، كنت أريد الفهم، فهم ما تريد أن تفرضه عليّ كواقع أخفيه عنها، كم بدوت غبية! الجميع يعتقدون أنّي اتفقت ومدحت!

ارتخت أطرافي المشدودة، تنفست بعمق، واستغرقني ضحك هستيري، جعل هند تبتعد خطوتين، وتنظر إليّ نظرتها لمجنونة فقدت أعصابها، واحتار سؤال على شفتيها ولم يجرؤ على الظهور، عندما تركتني نوبة الضحك العصبية، اقتربت هند مني ثانية وحاولت أن تبدو جدية ومتماسكة، باركت لي ثانية وأنا أغوص في دوّامة الذهول الّتي سيطرت على حواسي، تجاهلتْ لهجتي الساخرة في الإجابة، وأحاطتني بأمومة حنون :

ـ يبدو أنّ أعصابك متعبة، سنتحدث فيما بعد، وسأعرف سر هذه الحالة الغريبة الّتي تسيطر عليك.

انسحبت هند وهي تحاول تشجيعي بابتسامتها الصافية، وتركتني أعيد ترتيب مكتبي ولكنّي لم أستطع أبداً ترتيب أفكاري أو السيطرة على نفسيتي المتعبة، امتدت يدي إلى القلم، خططت على ورقة بيضاء بحروف متكسرة طلب إجازة وطلبت من هند وأنا أغادر المكتب تقديمها بالنيابة عني.

ركضت خارجة من الغرفة قبل أن تتفوه بكلمة، نزلت إلى الرصيف، تنفست هواء مليئاً بالدخان والغبار، عبرت الشارع المزدحم بالسيّارات والمارّة، تسلّقت سور الحديقة الصغيرة المحيطة بنافورة الماء، رميت حقيبتي على العشب خطوت صوب رذاذ الماء، وتركته يغسل وجهي، ويتسرب إلى جلدي الدبق تحت القميص الصيفي الواسع، شعرت ببعض الراحة، تمدّدت على العشب كمتشرّدة، اقترب شرطي المرور من السور الحديدي، نظر إليّ باستغراب، أومأ

بيده، أجابته ضحكة عالية انفلتت من إسارها منطلقة في الفضاء الرمادي لمدينتي المشحونة بالدخان. نظر إليّ نظرة متسائلة مندهشة، تتهمني بالجنون، وابتعد، اختفى في الزحام مما جعل ساعة الصحو تدق رأسي، ماذا لو ظنّني مجنونة فعلاً؟ ماذا لو ذهب لإخطار الجهة المسؤولة عن المجانين والمتسكعين أمثالي؟ هزّني الخاطر، أيمكن أن يفعلها؟!

النصف الصاحي في دماغي أجاب، لا، انهضي، اذهبي إلى البيت، يكفيك ما تفعلينه بنفسك. النصف المتمرد، خضع مستسلماً لرغبات النصف العاقل، اعتليت السور الحديدي ثانية، واندسست في الزحام، لم أدر كم من الوقت استغرقت وأنا أسير في الشوارع على غير هدى، لا أدري كم من الأفكار القاسية المرّة راودت نفسي وسيطرت على عقلي؟ شيء واحد كنت أعرفه أنّ جميع من مروا بي كانوا يحملون نفس العينين البنيتين الواسعتين، وأنّ كلّ الشوارع كانت تحمل بصمة صبرا والمخيّم والرملة البيضاء، وأنّ كلّ الأبنية التي مررت بها، كانت رمادية مائلة إلى السواد، تفوح منها رائحة البارود والخبز الساخن!

أخيراً انتظمت أنّات درجنا الخشبي، وعاود صريره المعتاد، واحتوتني أريكة جدتي العتيقة.

لم أفهم ما قالته رشا، ولم أعِ لهفة أمي ودموعها. على الحائط توسطتُ صور الراحلين وروحي غفت في خبائها.

عندما استيقظت، كان المساء الشاحب قد رحل، والشاي البارد مركون بجانب الأريكة، والعتمة تزحف في أرجاء الغرفة بصمت ومكر، رشا جاءت مسرعة، بمودة. أخبرتني عن قلق سيطر على أمي وأبكاها لتأخري في العمل اليوم، ليست عادتي! أمي، أخواتي، أركان

البيت، الجميع يحفظون مواعيدي، ولا يحتملون تأخري. ماذا لو تأخرت عن العودة حتّى آخر العمر! شاي رشا الساخن أزال بعضاً من هذياني.

نهضتُ، شعرت بجسمي يتكسر كزجاج هش، لم أكن قد تحركت أثناء نومي، ذهبت إلى المطبخ، غسلت وجهي، فتحت باب الغرفة، كانت أمي تصلي المغرب، أغلقت الباب بهدوء، وعدت إلى غرفة الجلوس، أنرت المكان وجلست، حاولت تقليب صفحات مجلة نسائية كانت على الكرسي، لم أستطع، حاولت الاستلقاء ثانية، لم أفلح، نهضت إلى الشرفة، كان الليل ينشر أشرعته الباردة فوق دمشق في هذا المساء التشريني الكئيب. لقد بدأ الخريف يرسل أولى زوابعه، وبدأ قلبي بتلقي أخطر انكسارا ته، لم أكن أتوقع أن تمرّ هذه المدة دون أن تسأل عني، تلبّسني اعتقاد أنّك نسيت كلّ شيء بمجرد ركوبي التاكسي إلى دمشق أوّل تباشير تموز الماضي، والمانع؟ ألم أكن نزوة أو طفرة زالت مع زوال السبب؟ وجدت نفسي تحتجّ لتلك الإهانة، لا، لم أكن نزوة، لقد شعرت بحبك، غمرني بالصدق، والصراحة. عاد الشك يطرق رأسي، وما المانع، كان صادقاً وانتهى، كلّ ذهب في طريق! والبعيد عن العين بعيد عن القلب كما يقولون..!

أرسل تشرين رياحه الهوجاء لتغلق باب الشرفة بعنف، وتوقظني من حلم اليقظة الدائم، شعرت بكتفيّ الباردتين تؤلماني، دخلت ثانية.

كانت أبخرة الشاي الساخن تتصاعد في جوّ الغرفة، فتدخل الدفء في القلب وتزرع الأمنيات في سماء النفس الكئيبة، شربت الشاي وأبقيت الكأس بين كفيّ علّه يدخل الدفء إلى ضلوعي، أنتظر يديك تمحوان الأسى وتزرعان زهرة غاردينيا في شعري...!

5

يجتاز الأزقة موجعة الألفة، يطرق كعب الحذاء بصريره المزعج البلاط الأملس وغفوته، يصحو على شيء يقتل في نفسه تباشير أمل غامض الملامح، ينطق حضورها بألوانه الصارخة، يتنهد زافراً ما في صدره أنفاساً متقطعة، يسكب ابتسامة على منحنى الزقاق الضيّق محيياً بها بائع السحلب، يتناول الكعكة الساخنة، يخنقه البخار المتراكم في حلقه، يدفع الدمع، فيلمع الجفن ببقايا لهيب أحرق داخله، يتكرر السؤال، يهرب منه ملتمساً أفق الزقاق البارد بنظرة حيرى، تصطدم نظراته بالحجارة الرمادية المائلة للسواد، تشتاق روحه الزرقة، فلا يجد لها منفذاً، ينحرف شمالاً، تتسلل إلى رأسه العارية نسمات باردة مُحمّلة برذاذ ينسكب من شقوق الأسقف، ينحني بحثاً في السواقي الجارية بمياه قذرة عن موقع لقدميه، حين يصل الباب الحديدي الكبير المصفح بالتوتياء، تستوقفه رائحة المعجنات الشهيّة في الفرن القريب، يتجاوز الرائحة متنحنحاً، يمتدّ المدخل الضيّق بضع خطوات، تهاجمه قبل اجتيازه أصوات عالية، يفهم بعض عبارات بعربية مشوّهة، يصعد الدرجات المتكسرة متغاضياً عن المنظر اليومي لصاحبة الدار بقرب أصص الزرع، تسحب الماء من البركة، تسقيها وهي ترشق ابنتها المراهقة بدعاء يقصّر الأجل، ويرسل لها أعور يحملها من خلقتها، يتجاوز تحيتها المصحوبة بسؤال روتيني إن كان يحتاج لخدمة ما، يهزّ رأسه نفياً ويدلف غرفته الباردة، يلتمس بعض الدفء من مدفأة كهربائية تتراقص ساقها العرجاء فوق سطح غير مستو، ارتمى على السرير الضيّق بملابسه كاملة، معطفه المبلل لسع

جلده، نهض إلى النافذة قلقاً، بحث في فسحة الدار عن شيء لا يعرفه، تكرر السؤال، أزاحه بسرعة، قرعت نورا الباب:

ـ الشاي.

تناوله من يدها، تأمل قامتها الضئيلة، وعينيها الضيّقتين، طيف ابتسامة مرّ على شفتيه جعلها تمتلئ حبوراً وتتعثر خطواتها الهابطة بالدرجات المكسورة، أغلق الباب، أمها على حق تحتاج كيّالاً أعور! ابتسامة أخرى فاجأته تحوّلت إلى ضحكة هزّت كأس الشاي الكبير بين يديه، رشفات متتالية جعلت جوفه يشتعل قليلاً فتمتدّ الحرقة إلى أصابعه، يرفعها أمام عينيه، يحدّق بها جيداً، يضمُّها بقوة، تتعرى لوحاته المتكدسة أمام عينيه، الحقائق دائماً تجرح!! ما الذي استفاده من هذه الألوان المشتعلة بنبضه؟ ما الذي قدّمته له تلك العذابات التي سجّلتها ريشته بأعصابه؟ إلى الآن تتوالى الخيبات على باب القلب تطرقه بكلّ عنف وقسوة، إلى الآن يحسّ أنّه على هامش العالم المحيط به، يعيش بقايا عالم كان له يوماً سكناً وأمناً، يبرز وجه أمه من إطاره الأسود بملابسها الشعبية، تتكئ على باب خشبي في ضيعته البعيدة، ابتسامتها الغامضة لا تشبه ابتسامة الموناليزا في شيء، تشبه وجعاً مقيماً في الروح، خلّفه ذكور آثروا تركها وحيدة مع ذكريات دافئة، أحدهم قصد الدراسة والآخر بحثاً عن المال، وهو أغرقته دمشق في دوّامتها. ملامح وجهها تنبئ عن طيبة ساذجة، متسامحة. يغرق في خطوط اللوحة، تحرقه الغصّة، منذ متى؟ منذ متى لم ينثر على قبرها وردا ويرشه بالماء والدموع؟ يبتعد بغصته إلى النافذة، الوجوه نفسها في ساحة الدار المسوّرة بالزرع وشجر النارنج، يغادرون الفسحة الرطبة، تقفل الأبواب، ويسود الصمت، تقطعه صاحبة الدار بصراخها المستمر لنورا.

يرتمي على قلقه خالعاً معطفه، محتضناً رأسه بين يديه، يتكرر السؤال، يفرّ منه إلى ريشته يحتضنها بقوة، يتطلع نحو صورة ندى الناقصة، يغلي المرجل في داخله مترجماً السؤال انفعالاً وتوتراً، يرميها بسهم أحمر، يسيل فوق الخد دمعاً ممزوجاً بالدم. تغادره الدهشة، يتطلع إليها ثانية، يبتسم بيأس، يتركها باحثاً في ذلك القفر البعيد عن طيف فتى على ساقية، يستظلّ بشجرة الجوز ويلتقط زرقة الأفق فيضفر منها قوس قزح، ويغفو حالماً بحورية تناديه إلى عمق الزرقة.

منذ رآها للمرّة الأولى اعتقد أنّها تلك الحورية الّتي أغوت الفتى الصغير تحت شجرة الجوز الضخمة، وخطفته إلى عمق المحيط، حاول مراراً التملص من أسرها، لكنّ شبكتها العنكبوتية حول جسده تزداد كثافة ومتانة مع الأيام، لم تكن ندى حورية بحر! اكتشف ذلك في وقت متأخر... كانت جبلاً من جليد يتحرك ببوصلة داخلية مضبوطة الإيقاع، حتّى ابتسامتها! نعم ابتسامتها الباهتة، حاول أن يجد فيها شيئاً غامضاً، مثيراً، دافئاً، لم يفلح، ومع ذلك أحبها! تسربت ببطء تحت جلده، وكبرت شجرة الجوز. يوم ارتعشت كفها في يده تحت القصف في بيروت اعتقد أنّ الحورية طلعت له من لجّة المتوسط، ستخطفه وتعود به إلى عمق الزرقة، واعتقد أنّ الحبّ الذي جرفه تياره اعتصر قلبها، لكنّها استعادت ابتسامتها الباهتة بسرعة عجيبة وأمطرت رماداً في داخله.

حين تأمل وجهها المشوّه في اللوحة، جرى نهر الدم بعيداً، واستعاد فتاه الضائع.

في بريّة على كتف واد يحفّ الحور به، استلقى يراقب السماء البعيدة، يصله صوت أمه دافئاً، حنوناً، مشبعاً بالألفة ورائحة الخبز الساخن:

ـ لماذا تريد تركي يا مدحت؟

بساطة السؤال غاصت في قلبه كنصل خنجر، لكنّ الحلم يمتلك حواسه، والقرية لا تحقق له جزءاً منه، يريد أن يصبح مشهوراً، أن يرسم الأفق الأصفر، وعباد الشمس، وبيتاً عند المنحنى تنحني له رؤوس جميلات دمشق!

ذكورها تركوها تباعاً وهو آخرهم. كانت دائماً تسأل بنفس البساطة القاتلة: لماذا؟ وينهمر الدمع ساخناً غزيراً مصحوباً بشهقات خافتة! أمه الآن...

ما الفائدة من تذكر تلك اللحظات ولا عودة تريح الجسد في قبره؟ يحنّ لباقة ريحان يضعها على قبرها، كانت دائماً تعشق أصص الزرع، ترتبها، تشذبها، وتعطيها أسماء جميلة، سقايتها كانت من أجمل طقوسها، ترشّ بعدها التربة أمام البيت، تفرش حصيرتها وتجلس قبالة المساء تستعطفه عودة الأبناء وتنظر جهة الغرب، تنحدر الشمس في هاوية العتمة، وتصرّ على انتظار أكبر... قد.. لعلّ.. لكنّها تجرّ ذيل ثوبها إلى غرفتها، ترمي طرحتها، وتندسّ في فراش تبتهل لطياته عودة الغائبين!

يا لأمه.. حرقة تشوي حلقه عندما يحضر وجهها ممطراً بأسئلته العاتبة، لم يعد به حاجة لمداراة خجله من عينيها، لم تعد..!

ثانية تطلّع إلى وجه أمه في اللوحة، حملها قريباً من النافذة، ضمها قليلاً، أراحها على السرير، ارتدى معطفه، رمى لوحة ندى الناقصة بنظرة باردة وغادر الغرفة.

حين انفلت من الزقاق المعتم، طالعته دمشق بشمسها الباردة، دلف سوق الحميدية، كعادتها روائح الخبز المختلطة بروائح أخرى أول ما يطالعه في الجزء القصي من السوق. قريباً من الفسحة المحيطة بمقام

صلاح الدين توقف قليلاً، تكرر السؤال، نفض رأسه بعنف ودخل المقام، لمس بعينيه تلك المنمنمات الفسيفسائية الرائعة، تصفح الكتب، انتعل حذاءه وخرج، اتكأ على طرف بركة الماء الجافة خلف غرفة المقام، من نافذة ملاصقة هاجمت أذنه بشراسة أنغام راقصة مصحوبة بكلمات مبتذلة، تطلع إلى النوافذ الباهتة اللون، اعترته الدهشة، أيسمعها صلاح الدين؟ برقٌ أغمض عينيه فلمح سيفه يهوي عميقاً في لحم الفرنجة، اللحن الصاخب يغوص عميقاً في لحم المقام، أيرتعش له صلاح الدين؟ غادر الفسحة متبوعاً بقهره، عاد أدراجه إلى جامع أمية، اجتازه إلى السوق المغلقة، لم يشعر أنّ للمكان إلفته السابقة، أهو غريب حقاً؟ هاجمه السؤال، أمسك بياقة قميصه، شدّه بعنف، أسند رأسه إلى الجدار البارد سانداً بأصابعه المثلجة معدته، الجوع هذه المرّة أجاب على السؤال وجرّه إلى بائع شطائر قريب.

عاد أدراجه، دلف الزقاق، حين وصل الباب الكبير ودّع قلقه، حين استقرّ على سريره خلع رأسه عنه وارتدى هدوءه، فقد انسلّ الجواب بحياد وكبرياء إلى دماغه فغرق في النوم.

صحا في الصباح على صوت نورا تطرق الباب حاملة إبريق الشاي، نظراته عبّرت عن دهشةٍ سارعت نورا لإيضاح الموقف:

ـ أنا نظفت الغرفة، رميتها، كانت مشوهة، أكنت تريد الاحتفاظ بها؟

نورا الساذجة قرأت الفكرة، أم استوحتها من غريزتها؟ نورا وفّرت عليه ترددا وقلقاً وصراعات لن تنتهي، ابتسم لها بودّ هذه المرّة، ربّت على كتفها فانكسرت نظراتها متراجعة إلى الخلف، هبطت الدرج متعثرة بكلمات الشكر، وخلفها نزلت خطواته قاصدة الجريدة.

6

سرت رعشة كهربية في أوصالي، أطبقتُ جفوني على لون بني تفوح منه رائحة قهوة تحترق، اقتحمت غفوتي أمواج الرملة البيضاء وشمسها الحارة، أرسل الدفء استرخاءه اللذيذ في أطرافي، هاجمني صوت مدحت العالي النبرات حامداً الله على سلامتي.

اعتدلت في جلستي، اغتصبت ابتسامة، منكرة المرض، اندفع نحوي مائلاً برأسه، بابتسامة فاضت على أطراف شفتيه فبدا كمهرج صغير، دعاني إلى غداء شعبي بسيط، على قدّ الحال. وجدت نفسي أنساق لهمسه راضية مبتسمة، وأختار الطعام!

ـ أفضّل الفلافل.

ـ ليكن كما تشائين، وهذا أوفر.

ازدحمت الغرفة بالمهنئين بالسلامة، واكتشفت أنّ هند قدّمت لي إجازة مرضية، وجعلت الجميع يعتقدون بأنّي مريضة فعلاً، كانت تبتسم لي بخبث من وراء أوراقها، وهي تراقب حيرتي في الرد على الاستفسارات المتكررة عن نوع المرض والأدوية والطبيب الذي يعالجني.

وتبرع الكثيرون بجلب الزهورات والشاي، ووصف بعض الأعشاب لي كمسكن للألم وطارد للمغص، وخافض للحرارة، ولعن الله الأنفلونزا كم هي كريهة! انسقت وراء الكذبة، فشعرت فجأة بالسعال يتشبث بحنجرتي، والجفاف يتسلق حلقي كنبتة طفيلية مقيتة، تقلّصت معدتي مشاركة في الحدث الرهيب!

شربت الزهورات بحماس، وأخذت الحبوب المسكنة بدهشة وأنا أتساءل بحيرة: أأنا مريضة؟

ربّما! أشعر فعلا أنّي كذلك.

مضت الساعات الأولى من الدوام وهند تراقبني وهي تكبح فضولها بصعوبة منتظرة فرصة بقائي وحيدة، قبل أن يحين موعد انتهاء العمل، اقتربت مبتسمة منتشية بقدرتها على تسيير الأمور:

ـ حاولي التقليل من عصبيتك، اسأليني أنا، فهي في مثل هذه المواقف تباعد بين الأحبة، وتقف حاجزاً في وجه اتفاقكما.

تأملتها بدهشة، وكأنّي أكتشف هذه السيّدة لأوّل مرّة، هي مصرّة على ثقتها بخبرة منحتها إياها التجارب والسن، مصرّة على أنّ علاقتي بمدحت ستتوّج بزواج سعيد، لأنّه قائم على معرفة وتفاهم، وتلاؤم بين شخصيتينا! موقفي من مدحت محسوم، وواضح في ذهني، ولست بحاجة لمناقشته، لكنّي قبلت دعوته لأوضح له ذلك، كي لا يلاحقني فيما بعد بتفسيرات وهمية لتصرفاتي معه.

ابتسمت هند معربة عن عدم تصديقها لكلماتي، حيّتني بحرارة، واتجهت إلى موقف السرفيس القريب، كان مدحت يرابط قرب الباب الخارجي بانتظار ذهابها، اقترب مني مرتبكاً وكأنّها المرّة الأولى الّتي نسير فيها معاً، فارقته جرأته الّتي تملكته في بيروت، بادرته بلهجةٍ مرحة:

ـ ما بالك؟ أهو اللقاء الأوّل لك مع فتاة؟

نفخ بحدّة:

ـ يبدو أنك ستبدئين المشوار بالهجوم، انتظري. سنأخذ تاكسي، لا داعي للمشي، ربّما تمطر، ألا ترين الغيوم السوداء تسدّ الأفق؟

كان على حق، لم نكد ندخل السيارة حتّى بدأت أمطار تشرين تغسل زجاج النوافذ، وترشق العابرين دافعة خطاهم تجاه بيوتهم، أو الاحتماء بمداخل البنايات، يا لمطر تشرين ينهال رصاصاً ورماداً

ووحشة! فتح باب السيّارة لي، فرفعت حاجبيّ استغراباً، وقف باحترام تاركاً لي الطريق لأدخل قبله، سرت متعثرة أبحث عن طاولة منزوية بعيداً عن أعين العابرين في الشارع، سحب الكرسي وتركني أجلس قبله، بصمت جلس قبالتي، أخرج علبة سجائره الحمراء وراح يبحث عن علبة الكبريت بعصبية، أشعل سيجارة وتنحنح، هربت الحروف من شفتيه وأعلنت اللغة اعتصامها احتجاجاً على احتلالي مساحة تفكيره، تناول أوّل فكرة خطرت له:

ـ هل تريدين كولا مع الشطائر؟ أعرف أنّك تحبينها.

أجبت بمرح لأغيظه:

ـ ومن أين تعرف؟ أريد شاياً، أنا أحبه في الجوّ الماطر.

طلب لي الشاي، وراح يحدّق بي كأنّه لم يرني قبل تلك اللحظة، ولثوان شعرت بشيء ينهار في داخلي، أهي مقاومتي؟ أم... تمسكت بطرف الطاولة ورحت أنقر عليها بعصبية، أدركت أنّ قبولي الدعوة كان خطأ فادحاً. داريت الخطأ السابق به، ماذا أفعل الآن؟ أريد أن أجد طريقة مهذبة أفهم بها هذا العاشق أنّي لست له، خانتني السبل ووجدت نفسي أقول بطريقة فجة:

ـ مدحت، أنا سأوفر عليك التعب، لقد أخبرتني هند سر هذه الدعوة، وأنا أشكرك عليها، لكنّي لا أنصحك بالتورط بحب عقيم، فأنا لا أفكر بالزواج.

فتح فمه ليقول شيئاً، لكنّه غرق في الصمت وهو يتأملني بخبث ينم عن عدم تصديق، حاولت التراجع عن لهجتي القاسية وتخفيف وطأة كلماتي المتسرعة، بتزيين مستقبل تنتظره الفتوحات الفنية والجميلات على بوابته. لكنّه ابتسم ساخراً:

ـ الكثيرات! وأنت لا؟ ما أشبهك بجدتي، اشربي الشاي، عندما تشعرين بالدفء يغلف قلبك، قولي لي.

كلماته أدخلت الصقيع إلى القلب لتلغي فرصة الحوار، يبدو أنّه احتاج إلى الكثير من ضبط النفس قبل أن يتهمني بأشياء كثيرة لم تكن بصيغة الشتائم، لكنّ يده الممدودة إلى صدري في نبرة احتجاج نشرت الذعر في عقلي المشوش:

ـ أرى أن تتحدثي بوضوح أكبر، أنا أضع قلبي وعواطفي أمامك على صفحة بيضاء، لن أجلس أمامك لأتغزل بعينيك، فأنت تدركين أنّي أسيرهما، ولن أصف جمالك، فأنت مغرورة به، ولن أمدح عقلك واتزانك فهما سبب انجذابي إليك، وبوضوح أنت ككل فتاة أحلام مناسبة لي، وأدرك قبل دخولي في التفاصيل أنّي لست فتى الأحلام المناسب لك، فأنا لا أملك من صفات فتى الأحلام شيئاً.

اعترضت، لست أدري إرضاء لمن:

ـ ولكنّك إنسان ناجح، وأعترف أنّك وسيم وطيب، فَلِمَ تقول ذلك؟

ـ أرجوك لا تقاطعيني، لقد نسيت أهم صفات فتى الأحلام، لا مال، لا سيّارة، ولن أستطيع تأمين مصروف شهر عسل في أوروبا للعروس، ولا دفع ثمن فستان بالآلاف، وهذا أهم ما في الموضوع.

ـ لكن صدقني أنا لا أفكر بهذه الطريقة السخيفة، أنت تجرحني باتهامك.

ـ أنا لم أقصد جرحك، وأعتذر، لم يبق إذاً سوى سبب واحد، هل في حياتك رجل آخر؟

خبّأت دموعي في الجفن، لم أكن أتوقع أن يلمس سرّك الصغير المخبّأ في قلبي، لا،لا أريد أن يعرف أحد بحبنا، أنت تخصني وحدي، خضرتك من حقولي، وفراشك الملون يطير في أوردتي ناشراً

عبق ربيع بعيد، لا، لن يراك مدحت في عينيّ، ولا في رعشة يدي، خبّأت يدي تحت الطاولة، حاولت التماسك، لكنّي لم أستطع الرد رغم إلحاح مدحت!

رجلٌ آخر! وهو؟ الرجل الأوّل! الرجل الموجود على الكرسي المقابل، يشرب الشاي معي، يحدّثني، وربّما يمدّ يده بعد دقائق ليحتضن كفي كما فعل في بيروت، هو الرجل الأول إذاً، وأنت الرجل الآخر؟ رجلٌ آخر، يسدّ فتحات الشرايين، وصمام القلب، فأشعر بذبحة الموت، رجلٌ ينثر البنفسج الطري في حقول شعري، ويزرع شتلات الحبق فوق وسادتي، رجلٌ هزّ إيماني بنفسي، وزعزع ثقتي بحياتي وغيّر مسارها، نزع كلّ إشارات المرور، حطم كلّ الجسور الّتي تربطني بالعالم حولي، أغلق عليّ قضبان زنزانة قلبه ورحل، تركني لا ماء، لا لغة، لا حياة، فقدت كلّ أسباب تواصلي مع الحياة، وهو يبتعد، يحضنه المتوسط بأمواجه العالية، يتدحرج فوق رمال القلب، ويهدم كلّ قصوري! رجلٌ من ماء، طلع إليّ من حلم البحر، همس بعبارات غامضة، واختفى، مددت يدي لأقبض على طيفه، دون جدوى. كان عليّ أن أضع النقط فوق الحروف، وأبوح بالنقطة الوحيدة الّتي لم أجرؤ على الاعتراف بها، تحمحم (الحاء) في أوّلها، فأغصّ بصوتي، حاول مدحت إخراج بقية الأحرف لصالحه، لكنّ صهيلها أدمى حنجرتي، وفقدت أيّ رغبة في الكلام. هززت رأسي علامة النفي، كانت الكلمات تعلن العصيان عليّ رافضة الانطلاق من حنجرتي، لا تريد أن يسمعها غيرك! وكأنّي تركتُ الباب مواربا ليدخل منه مدحت من جديد:

ـ إذاً كفاك لعباً بأعصابي، سأترك لك فرصة للتفكير.

مدَّ يده عبر الطاولة إليّ، يداي حافظتا على تشابكهما تحت الطاولة، كانتا ترتعشان بعصبية لا تريدان أن يمسهما أحد غيرك، تراجعت يده بيأس، لكنّه تماسك وعاد إلى مرحه:

ـ ما رأيك لو نشرب فنجان قهوة في مكان آخر؟

كنت أريد الفرار من حصاره لي، فقد أخذت نظراته طابعاً مختلفاً مليئاً بالرغبة المفضوحة والتأمل الطويل لأجزاء جسدي حتّى شعرت بالارتباك والخجل، وأحسست بأشياء أخرى هزّتني، ولمت نفسي لتورطي في قبول دعوته.

تنفست فضاء الشارع بارتياح، كان المطر قد توقف والشوارع المليئة بالبرك الموحلة تنذر بمشوار سيئ، خجلت أن أطلب منه إيقاف تاكسي، كنت أعرف بعد رفضي دعوته لتناول القهوة أنّه سيرغب في المشي ليطيل الوقت الذي سنقضيه معاً. سرت بلا مبالاة وراء اقتراحه الصعود إلى المهاجرين، أطللنا على دمشق المغسولة برماد تشرين، لكنّ الهدوء الخريفي الذي أعقب المطر، لم يرسل راحة إلى القلب. تأملته ونحن نسير، كان وجهه طفولياً يعبّر عن فرح دائم، ومشيته فيها إيقاع منتظم يعبّر عن ثقة ورضا داخلي، وللمرّة الأولى انتبهت إلى أنّ مدحت كان أقصر مني قامة، وحاول إخفاء ذلك بلبس حذاء ذي كعب أطول من المعتاد عند الرجال، وشدّ قامته أثناء السير، ابتسمت لهذه الملاحظة المتأخرة، لم أكن أعير هذا الأمر التفاتاً في السابق، لأنّي لم أفكّر بمدحت كإنسان قريب مني ويمكن أن أرتبط به، كان تعاملي معه جزءاً من عملي فقط ولا يهمني كيف يبدو، وضحكت لفكرة خبيثة خطرت لي، لو أنّي كنت أحبه كيف سيستطيع تقبيلي وأنا واقفة؟ يبدو أنّ ضحكتي أدخلت إلى قلبه الرضا! ما الذي حدث لي؟ أهي بوادر هزيمة جديدة؟ هل سأضعف؟ لم أجد جواباً، السؤال يكبر،

والحيرة أيضاً، خفت من حيرتي، خفت أن يكون مدحت قد لمس شيئاً في القلب يجعلني أفكر فيه ولو من باب العطف!

ـ أشعر بالتعب، أرجوك مدحت يجب أن أعود.

ـ بالتعب؟ أم رغبة بالهرب؟

كلماتي السريعة اللامبالية أوقفت سيل الرغبات والأمنيات في عينيه فانطفأ بريقهما.

أوقف سيّارة أجرة، ركب بجانب السائق غارقاً في صمته. أراد دخول عوالمي دفعة واحدة، فصدّته أسواري المنيعة، صحيح لم أتعمد إهانته، لابدّ أنّي آلمته! يا لغباء اكتشافي المتأخر! سابقاً لم أسمح لأحد عبور عتبة ذاتي المقدسة، وحدك وطئتها حافي القدمين، مقتلعاً أبوابها الموصدة، تاركاً جسدي للعراء والريح، فهل يستطيع مدحت ابتزاز عواطفي الهشة؟ بعد اجتياحك لها وتدميرك لرتابة أيامي الآمنة؟ حتّى ساعة زلزالك الذي ضرب مدني بقسوة، لم أرَ في أعين الآخرين تقلبات مشاعرهم، ولم يروا إلاّ كلماتي المبتورة الموجزة لغرضي.

توقفت السيّارة، نزلت وبقي مدحت محتضناً شروده وابتسامة باهتة، مضى دون وداع، لم يدهشني تصرفه، وقفت قليلاً في الشارع أتابع بعينيّ الذاهلتين ابتعاده والمارة، وحبات المطر الّتي أعلنت عن غضبها فجأة وتفجرت السماء برعد أصم، لم أرغب في العودة إلى البيت، ولم يكن ممكناً أن أفرض نفسي على صديقة أو زميلة في مثل هذا الوقت الذي يأوي النّاس فيه إلى بيوتهم.

أنّت الدرجات الخشبية تحت قدمي بتوجع معلنة وجودي! هل كنت بحاجة لإعلان وجودي؟ كنت أريد أن أتضاءل حتّى أصبح بحجم نملة، أمرُّ من تحت الباب منسلة إلى الفراش دون أن يراني أحد.

لقد آلمني ما فعلتُه بمدحت، ولم أكن مستعدة لرؤية أيّ وجه متسائل عن تأخري أو معنف لي أو قلق عليّ، كنت أريد الانفراد بنفسي، أغلقت الباب من الداخل، وارتميت في فراشي، هل يعقل أنّه يحبني، كما أحببتني؟!

حفر السؤال نفقاً عميقاً في شرايين دماغي، واستوقفتني ـ كما ـ هذه، كسكين صدئة تقطّع نياط القلب، هل يعني هذا أنّ حبك أصبح ماضياً لم يعد له وجود؟ وهل وجود مدحت في حياتي في هذا التوقيت يعني حضور البديل الذي سيحتل مكانك؟ رغم أنّ معركة حبنا لم تكن متكافئة، إلاّ أنّ السهم أصاب قلبينا بنفس العنف في لحظة واحدة، إذاً لا زلت تحبني!

حسمت أمري، غداً سيكون آخر يوم أتعامل فيه مع مدحت، سأخبره بوضوح أنّي أحبك، لقد أخطأت بإصراري على الاحتفاظ بالسر لنفسي، وماذا يهم؟ فليعرف!

لففت كتفيّ بشال من الصوف، اتجهت إلى المطبخ، صنعت فنجاناً من القهوة، استرخيت على الأريكة في غرفة الجلوس ممازحة أمي وأخواتي المتحلقات حول المدفأة، رشفة أخرى، ورأيتك تزرع الأفق ابتسامات، ومطراً، وتنثر في فنجاني حبوب الهال والمسك، وعلى شفتيّ أزهر دفؤك.. ناعماً... حنوناً... مسالماً... وغفوت.

7

كانت نظراته الهازئة حيناً، المستفسرة حيناً آخر، تحاصرني كيفما اتجهت، أصابني الارتباك، ولم أعد أعرف كيف أنهي ما أكتبه،

خفضت رأسي متشاغلة بكتابة كلمات لا معنى لها، مرتشفة قهوتي، مقلبة صفحات الجريدة أمامي.

ازداد الحصار عنيفاً بصمته، وازداد توتري، كنت أريد الانفجار بوجهه قنبلة كراهية وضيق، نعم شعرت في هذه اللحظة أنّي أكرهه. أسلوب حصاره المقيت، التفّ شرنقة لزجة حول جسدي، وجعل زملائي في الغرفة يسترقون النظر إليّ بين حين وآخر بفضول مزعج، محاولين رصد ضحايا هذه المعركة الصامتة بيني وبينه، غرقت في ذهول ملك جسدي وحواسي، لم أعد مستعدة لأيّ طارئ. كنت على وشك الانهيار، لكنّي تناولت ورقة وقلماً ورحت أخطّ كلمات لا شكل لها، كنت أرصد كلّ الحقد والفرح والحزن، والتشتت الذي في داخلي على الورق الأبيض، حتّى شعرت بالارتياح بعد تفريغ الشحن الهائلة من الوجع، رميت القلم، وتنفست بعمق، ورشفت ما تبقى من قهوة باردة في فنجاني قبل أن تقتحم هند الصمت بسؤال بدا لي فظاً لا معنى له:

ـ هل تسمحين لي بالجلوس؟

وتابعت: قبل أن أنسى اتصلوا بك من مكتب الأنوار. موعد الامتحان تقدم بسبب ظروف لم يشرحوها، يجب أن تطلبي إجازة منذ الآن، الامتحان في شهر كانون.

ضرب القلب بعنف، إذا لن أنتظر حتّى الصّيف القادم! قريباً ستمتدُّ يدك لتصافح يدي، وتعتذر عن تأخرك، عن غيابك.. عن.. بذهول تمتمت: أيعقل هذا؟ هند سحبتني إلى عالم آخر، أخرجتني منه بسؤال متوقع:

ـ لم تفسري لي سرَّ موقفك من مدحت، صدقيني إنّه إنسان طيب، هل بدر منه ما يسيء في بيروت مثلاً؟

لم أكن على استعداد للحوار، لكنّي نفيت أن يكون مدحت السبب، هند بحاستها السادسة كما تقول، عرفت أنّي لم أوافق على مدحت لأنّي أبحث عن الحب! قالت لي ذلك وكأنّها اكتشفت سر القنبلة الذرية. مع هذا أرادت إقناعي أنّ المرأة تحتاج إلى رجل يحبها، لا إلى رجل تحبه، نظراً لتجربتها الشخصية في الزواج الفاشل الّتي علّمتها أنّ المرأة يجب أن ترتبط بمن يحبها لتستطيع الاستمرار في حياتها الزوجية. لم تكن نظرية هند ـ الّتي ربّما تكون واقعية ـ تلائم تفكيري، رغم معرفتي بحوادث كئيبة عن أزواج أوقف سيل حبهما روتين الحياة اليومية. وقد أردت تأكيد العكس لنفسي قبل هند:

ـ ليس الرجال كلّهم كزوجك يا هند، أرجوك لا تلحي عليَّ، أنا مقتنعة بموقفي وأرجو لمدحت أن يجد من هي أفضل مني، فلا أظن زواجه مني صفقة رابحة.

أنهى حديثنا موزع البريد ملوّحا بيده:

ـ آنسة ندى، أخيرا أدخل المكتب وبيدي رسالة لك.

تحفزت أعصابي، وغطّى الدم وجهي، منك؟ هل يعقل هذا؟

مدّ موزع البريد يده بالرسالة، إنّه أنت فعلاً، خطك على الغلاف ينادي اللحظات الهاربة من أمسي، يحشرني بين أصابع الزمن المر، يعصر قلبي، إنّه أنت! تعلقت عيون الزملاء بوجهي المحمر ووعيت أنّ أعصابي خانتني، تصنعت اللامبالاة، وأخفيت الرسالة في حقيبتي.

ابتسمت هند، فقد عرفت سبب اضطرابي. مطّت الساعات رأسها ببطء هازئة مني (ساعتان أمامك لانتهاء الدوام، وساعة للوصول إلى البيت، فهل ستصبرين كلّ هذا الوقت لتقرئي الرسالة؟) ضحكت الساعة، وأعادت رأسها إلى صندوقها الخشبي وهي تدق اثنتي عشرة

دقة، وكلّ دقة تهزأ مني.. تحمّلي.. اصبري.. انتظري.. آآه. قطّعني سيف الوقت أجزاء، قبل أن يخترق نصله جسمي كلّه. انحدرت تجاه السرفيس أدافع النّاس دون أن أرى وجوههم، سمعت شتائم تدل على ارتكابي خطأ ما، لكنّ ذلك لا يهمني، كنت للمرّة الأولى أرى المسافة إلى بيتنا طويلة مقيتة مزروعة بالشوك والصعوبات، وكلّ موقف كنت أشتم السائق والركاب في سري، لِمَ يقف، لِمَ؟

ولأوّل مرّة لم أسمع أنين الدرجات الكئيبة وأنا أتجاوزها قفزاً، أغلقت باب غرفتي، ورميت أغراضي، جلست على حافة السرير وأنا أحتضن المغلف بأناملي وأقبّله، فجأة شعرت بالخوف من فتح الرسالة، شممتها مرّات لعلّي أعرف نكهة الحروف قبل قراءتها، لكنّي فشلت، خفق قلبي، أيعقل أن تكون الرسالة الوحيدة الّتي تكتبها لي تحمل نهايتي؟ كانت الفكرة سمجة، لكنّها آلمتني وازداد خوفي، امتدت أصابعي المرتعشة وفتحت المغلف بتردد، بسطت الورقة أمام عيني، فمنعني الدمع من الرؤية. ((ندى..)) سمعت الصوت قريباً يهمس بإذني.. وعيناي لم ترى سوى حروف غائمة أمطرت في داخلي حناناً وذكريات دافئة.

((دهرٌ مرَّ وأنا أنتظر أناملك الرقيقة تطرق جدران القلب، وتخرجه من وحشته.

انتظرتكِ دهراً.

فتشتُ رمال الشاطئ، حبة، حبة..

عاتبت صخور الروشة، لمت حصيّات الشاطئ الصغيرة، كرهت الطريق المار بالمخيّم، ومار الياس وجسر الكولا، أقفر الطريق بدونك..

دهرٌ مرَّ، وأنا أحاول التأكد من أنّ حبك لم يكن نزوة عابرة، فتفاجئني نبضات القلب صارخة باسمك، ما زلت أراوح بين انتظاري

لك، ومحاولة نسيانك، لقد انتزعت حبي انتزاعاً ـ وهذا ليس شيئاً قليلاً، وأرجو ألا آسف عليه. هل سأراك قبل اتخاذ قراري؟

هل سأراك قبل موسم الجفاف والعنف؟ هل ستطلعين في سمائي نجمة مضيئة؟ أم تراك بالسواد تلتحفين؟

سيمر دهرٌ آخر قبل أن أراك، سيمر موتٌ آخر قبل أن تركضي فوق جراحي الساخنة بقدميك الناعمتين المخضبتين بالحناء ونكهة الزعتر البري وشقائق النعمان.

انهضي من موتك الأخير قبل أن أرحل دون أن أغمض عينيّ على ملامحك العذبة.

أورقي في شجرة عمري، وأزهري.

حاولي أن تساعديني على اتخاذ القرار.

أحبك...

بيروت... تشرين الثاني....)

كطفلة شقية، قفزت فرحاً، كعليلة خائرة القوى، ارتميت على السرير ألتقط أنفاسي.

أكنتَ السكين الذي انغرز في أحشائي، أم جسر العبور إلى دنيا الحلم؟

أشرقتْ حروفك على غلاف الرسالة، وغرّدت عصافير بعيدة، وهاجرت من داخلي نوارس الحزن، واعترتني رعشة شوق مرهقة قبل القراءة، بعدها عبرت سمائي غيمة كئيبة. كانت سطورك تبعث فيَّ شعوراً مقيتاً لا أدري كنهه، لكنّي وعيته، ووجدت أنّك كنت جسر العبور إلى الكلمة اللغم الّتي تنفجر في داخلي حقداً وكراهية، فكيف جعلت نفسك مطية لحزني؟

أكنت الجرح، أم الملح؟ هل أعاتبك؟

شيءٌ واحد أدركه، أنَّ سطورك أدخلت إلى نفسي الحزن والكآبة وأشياء أخرى تحاول افتراسي، وتسرع بي بخطىً حثيثة نحو النهاية، وأنّك لم تفتح للشروق في أعماقي كوّةً بل زدت عتمتها! مع ذلك كانت حروفك رسول طمأنينة، لأنّها تعني أنّك ما زلت موجوداً، وأنّني لا بدّ سأراك قريباً. تحسست الرسالة ثانية، وللمرّة المائة أعدت رصف حروفها وترتيبها في قلبي. استوقفني الخط الأحمر تحت عبارة ((لقد انتزعت حبي ـ وهذا ليس شيئاً قليلاً ـ وأرجو آلا آسف عليه)). هل نسيت؟ أم أنّك لا تريد أن تأسف على أنّك منحتني ذلك الحب؟ أنت تحمّلني المسؤولية كاملة! حتّى في سطورك! يبقى السؤال المبهم معلّقاً في فضاء رمادي غامض.. إلى متى سأنتظر الجواب؟

على حافة بركان

1

استقبلتني بيروت بوجهٍ كئيب ينزف مطراً وحزناً.

ترى هل سيسعدك حضوري المفاجئ؟

وصلنا كراج شتورا، أنزلت حقائبي، وسرت صوب الغرب نحو الدير، المطر والأوحال حالا دون استمتاعي برياضة المشي المفضلة لديّ على الرغم من قصر المسافة.

وصلت دير مار الياس حوالي الظهر، أمام الباب كانت تظاهرة صغيرة من الطالبات تقف بقلق وحيرة. وقد اكتظ الشارع بالسيّارات، وأسرعت لأحجز غرفة تطلّ على البحر.

صعدت إلى الطابق الثالث، وفي آخر ممر على اليمين، كانت هناك غرفة خالية بثلاثة أسرّة صغيرة، وطاولتان تصلحان لتلميذ في الابتدائي، وخزانة احتلت الحائط الشرقي.

أفرغت حقيبتي، ورتبت محتوياتها، استبدلت ملابسي، وأخرجت كتبي ووضعتها على الطاولة، وذهبت إلى الحمّام، كلّ شيء

مرتب ونظيف وعلى الطريقة الغربية! فتحت الصنبور لأغسل وجهي، لم تكن مفاجأة لي، دائماً بيروت تبخل عليّ بمائها.

عدت إلى الغرفة، رفعت أباجور النافذة الضيّقة، عبس البحر في وجهي معبّراً عن غضب غامض، لونه الرمادي أرسل نسمة باردة كئيبة! فأغلقت النافذة، استلقيت على السرير، تجهّمت في وجهي بقعة بنية كبيرة كالحة، أحسستها تخنقني، اعتدلتُ جالسة، لماذا يكون حظي في بيروت أن أنام في غرف سقفها مرمم إثر قذيفة صاروخية أو قنبلة؟! حمدت الله أنّي لم أكن هنا عند سقوط القذيفة! لم أغفُ، أيقظتني طرقات خفيفة من حلمي، واقتحم خلوتي القصيرة وجه ضاحك، أطلّ من فرجة الباب، يستأذن بالدخول. عرّفتني على نفسها بطريقة صاخبة، وخطت إلى الداخل حاملة حقائبها بخفة ومرح، وضعتها أرضاً، فتحت الخزانة، وبدأت بترتيب الأغراض، وهي تتابع حديثها:

ـ أدرس الأدب الإنكليزي، السنة الثانية، من اللاذقية، سورية، وأنت؟

رددت باختصار:

ـ ندى من دمشق.

علّقت ضاحكة:

ـ نحن أقرباء إذاً، لا بأس سنتفق، ونحتاج إلى فتاة ثالثة تنسجم معنا، عندي صديقة لن تأتي الآن، امتحانها بعد أسبوع، عندك مانع إذا حجزت لها المكان؟

قامت بترتيب أغراضها وهي تدندن أغنية لم أسمع بها، إلا أنّ إيقاعها السريع وكلماتها الهابطة جعلت أعصابي تستنفر، لكنّ صاحبتها سكتت فجأة، واستدارت بقامتها المتوسطة المتلئة، مسلطة

عليّ عينين واسعتين أثقل نظراتهما كحل شديد السواد ممزوج بزرقة خفيفة، متسائلة بخفة:

ـ ألا يوجد مدفأة؟

ابتسمت ببرود، كان عليها أن تكتشف مباشرة أنّ التدفئة مركزية افتراضية، صيفاً شتاءً! واستغربت مرحها واقتراحها بجلب مدفأة كهربائية مخالفة الأنظمة، والكهرباء مقطوعة! كلتانا أكلت الطعم الرديء، لم يخبرونا في المكتب أنّه لا ماء ولا كهرباء في الدير، وعلمنا أنّ جلّ ما نستطيع الحصول عليه من الاحتجاج لدى ((الماسيين)) أغطية إضافية!

منعتني الضجة في الغرفة المقابلة من الاسترخاء، فنهضت لأعد الشاي، عادت زميلتي من الحمّام وصرخت معبرة عن فرحها بكأس الشاي الساخن، في وقته تمام!

سكبت لنفسها دون استئذان، وبتلقائية محببة جعلتني أحمرّ قليلاً، ثم انفرجت شفتاي عن ابتسامة.

عكس توقعها لم يكن مزاحها وصخبها سبب إزعاج لي، بل رحت أقارن بين انفتاحها على الحياة كوردة، وانغلاقي كمحارة. وبدت لي المفارقة غريبة. وقد اقترحت مباشرة أسلوب تعامل بسيط بيننا، نتقاسم فيه أغراضنا، ونبتعد عن الكآبة. وقد أثارتها في البداية ردودي المقتضبة على اقتراحاتها، ثمّ سلّمت أمرها لله ضاحكة:

ـ حسناً، حسناً، لن أجبرك على تغيير أسلوب حياتك، هذه ديكتاتورية، ظننتك زوجي!

ـ أنت متزوجة!؟

ـ ألا يبدو عليّ؟! هذه بشرى تستأهلين عليها حبة شكولا، أتحبينها؟

ـ أتحبين زوجك؟

ـ جداً، إلى درجة أنّي لا أريد رؤيته على الإطلاق. اسمعي، ببساطة زوجي عمره ستون سنة، وأنا في الرابعة والعشرين، تزوجت عندما كان عمري أربعة عشر عاماً، حسبة بسيطة، الحصيلة عشر سنوات زواج وكراهية، وولد.

كانت تتكلم بتلقائية، دون أضغان، وكأنّها تحكي لي قصة فتاة لا تعنيها:

ـ تقاليدنا لا تسمح بالطلاق، وقد زوجوني وأنا صغيرة دون أن أعي شيئاً، بيني وبينك لم أكن مكرهة تماماً، فقد فرحت بالذهب والماس والسيّارة والمشاوير والحفلات، كان يعاملني كأميرة، وقد بهرني كلّ شيء قدمه لي، ثوب عرسي يجنن، انتظري سأريك صور عرسي.

أخرجت صورة من حقيبة يدها وأرتني إياها، وصورة أخرى لطفل في الخامسة من عمره:

ـ هذا ابني، يعيش عند جدته. تصوري بعد سنة من زواجي زال الوهم ووعيت الحقيقة المرّة الّتي أعيشها، فاتجهت إلى الدراسة.

أطفأت سيجارتها، وألقت بجسدها على السرير محدثة ضجة وطقطقة مزعجة:

ـ أزعجتك؟ لا بأس، بعد فترة ستتعودين ضجتي، على كلّ حال لن أقيم معك باستمرار، لي أقارب هنا في بيروت، سأذهب لزيارتهم، أيقظيني في الرابعة.

أدارت رأسها نحو الجدار، وغطّت في نوم عميق، وتركتني مندهشة، أنظر إلى تلك الكتلة المتفجرة بالحياة، تضحك وتصرخ، تحب وتكره، وتنام، كلّه بسرعة عجيبة و بدون قلق! فرضت نفسها عليّ دون مشقة تذكر: (أيقظيني في الرابعة!) هل بإمكاني اقتحام

غرفة فتاة أخرى والتصرف بهذا الشكل التلقائي البسيط؟ حتماً لا، لقد أسرعت ما أمكن حتّى أحجز غرفة فارغة كي لا أضطر لطلب الإذن من أحد.

في الرابعة صحوت على يد تهزني بعنف، فتحت عينيّ لأجدها تصيح:

ـ ألم تطلبي مني إيقاظك؟ لقد تجاوزت الساعة الرابعة، انهضي.

وفهمت عبارتها الساخرة متأخرة! حاولتُ الاعتذار متلعثمة، فانفجرت ضاحكة، ودعتني لشرب القهوة.

نهضتُ متثاقلة، انتبهت بدهشة إلى ثيابها و ماكياجها الصارخ، واخترقتني رائحة عطر نفّاذ حمّمت به جسدها عوضا عن الماء! نظرت إليها من جديد، شربتْ قهوتها بسرعة، وخرجتْ تركضُ مودعة بيدها، ورأيتها من النافذة تقفزُ في ساحة الدير حاملة طفولة واضحة الحضور بكعب عال! وابتسمتُ بحيرة، مظهرٌ طفولي لامرأة ناضجة، قناعٌ تغطي به سنين التعاسة المتراكمة في داخلها، كم أحسدها!

2

أطرقُ في هذا الصمت أبوابك المغلقة ..

يفتح الفجر عينيه الحزينتين، يرمقني بكآبة، ويغمضهما وهو يتمطى ..

أهمس للريح المذعورة ((أين أنت؟ لمَ لا تفتح؟)) يرجع الصدى موحشاً، ما في حداااا

يحتضنني الرصيف وأوحال ندية، تطفر الدموع من جلدي، تنزف، ألعقها، وأكتم غيظي.

يتأخر الصباح عن موكب الشروق، يختبئ الفجر ناعساً وراء غمامات سوداء، تحدّق فيّ بعيون فارغة من أيّ معنى، والصباح لا يأتي.

الضباب يمدّ أذرعه أشباحاً مرعبة لتضمني، والصباح بعيدٌ بعيد.

الشارع فارغ، أخاف أن أطرق بابك ثانية، أكتب ورقة صغيرة، أرميها تحت الباب، قوة خفية تدفعني دفعاً، فأسرع الخطى. ها هو ذا صديقي الغول الأسطوري ينبت من عيون الضباب باعثاً فيّ تصورات مفزعة، لكنّي لا أشعر بالخوف، أقترب منه، لا تدهشني المفاجأة، إنّه مجرد حطام دبابة على طرف الشارع...! ضباب أسود لم أنتبه أنّه بفعل الحرب لا الطقس، حتّى الضباب انغمس في لعبة الحرب الشيطانية ففقد براءته.

أتجاوزها، بات كلّ شيء معقولاً أمام الموت، لن أتساءل ثانية عن الصيف الذي مضى، لن يزرعني الحبُّ في لياليه نجمة مرّة أخرى، ولن أكون سيّدة الكروم، ولا ربّة الخصب، تلك الأيام الّتي كنت أطلُّ فيها على الدنيا من شرفة عالية فلا أرى سوى أشكال بشرية تتحرك، انقضت، بدأت أعتاد هذا الشارع المقفر، وهذه الأشجار العارية، وهذه العتمة الدائمة! إنّها صديقتي، وتلك الأوحال الّتي زيّنتْ بها ثوبي سيّارةٌ عابرة، رسوماتٌ طائشة لفنان هاو، أضحك وحدي والشارع الخاوي، لم يكن هاوياً! بيكاسو استعمل ذنب الحمار في رسم أروع لوحاته، على حد زعم بعضهم، هاهو ثوبي لوحةٌ فنيةٌ فريدة، لوحة طينية في معارض الرصاص والقذائف المستمرة، والدم المتجمد على الجدران والرعب الدائم، أنسحب متابعةً سيري، مبتعدة عن بابك

المغلق الأصم، راسمة على وجهي ابتسامة محايدة، ململمة أطراف لوحتي المعجزة! وها هم أولاء أصدقائي الأشباح يمدون أذرعهم من خلال الضباب يتحفزون لابتلاعي، وهم يكشرون عن أجمل ابتسامة!

بردٌ... بردٌ يعتصر أصابعي فتهرب إلى جيب معطفي، بردٌ ممزوج بالدخان، أبحث عن منديلٍ في جيوبي أحمي به أنفي، تمدّ الشمس رأسها من بين الغيوم المتفرقة معلنةً بدء النّهار بعد ساعة من موعده، ترى أيّ وجه يحمل هذا اليوم؟

يبتسم البحر البعيد، وأجد قدميّ تسيران على الروشة بتلقائية وكأنّني خلقت قطعة حجر صغيرة في رصيفها، أو موجة مرتعشة تحتمي بصخرة الانتحار، حلقي يجفّ، أبحث عن مكان أحتمي به من انتقام الطقس القاسي، رغبةٌ ملحة في تناول الشاي الساخن تقودني إلى مقهىً على الشاطئ، التصقتُ بطاولة منعزلة، شعرت بأنّي جزء من المكان وكأنّني عاشرته سنيناً، رشفتُ الشاي وأنا أتأمل الشاطئ الممتدّ أمامي برماله البيضاء الناعمة وأمواجه الصاخبة غضباً وعنفاً.

هذه الفوضى ترضيني أحياناً، اختلاط الحابل بالنابل وامتزاج الطبقات والأجناس والأفراد،

هاهي الروشة الجميلة تتحوّل إلى سوق يحوي كلّ شيء، فبعد تشرد أسواق سرقس والطويلة وإياس، زحف أصحابها ببضائعهم إلى أجمل منطقة في بيروت، احتلوا شاطئها الآمن، شوهوا وجهها المزين بالورد والحناء، صفوا متاجرهم المليئة بالبضائع، الملابس والتحف والعطور، وكلّ ما يخطر ببال من يريد الشراء، استغرقني المنظر حتّى نسيت تماماً وجود الصخرتين اللتين تجمدتا في هذا البعد عن بعضهما وكأنّهما عاشقان أصيبا بلعنة ساحرة شريرة فحولتهما إلى حجرين قبل أن تمتدّ أيديهما للقاء، تنهدت.. ابتعد صوت فيروز الذي يغني على

استحياء كأنّه خجلٌ من وجوده دفاقاً حيياً يحمل عز لبنان الماضي ومجده ورومانسيته وروعة لياليه وبساطة ريفه: ((في قهوة على المفرق في موقدة وفي نار / نبقى أنا وحبيبي نملاها بالأسرار / جيت لقيت فيها عشاق اتنين صغار / قعدوا على مقاعدنا، سرقوا منا المشوار / يا ورق الأصفر .. عم نكبر عم نكبر)).

لمحتْ عيناي في تزامن عجيب مع كلمات الأغنية فتىً وفتاة يتعانقان على الشاطئ ساخرين من الحرب ومن الأسواق، ومن البضائع المهربة، ومن القمامة المحيطة بهما، ومن السيّارات المتحوّلة إلى متاجر متنقلة، ومن نظراتي، ليقولا لي بأكبر قدر من البساطة إنّ الحياة تسير رغم كلّ شيء، وإنّني في بيروت رغم مظاهر الدمار، وإنّ...

غاصت سكين مسمومة في الضلوع، نهضتُ مسرعة واندفعت خارجة من المقهى، سرت على غير هدىً، تدريجياً سيطرت على أعصابي، وهدأت معدتي، وسألتُ نفسي: (أيستحقّ ما رأيته كلّ هذا؟) عدت أدراجي لأستوضح الموقف، دخلت المقهى ثانية، دقائق مرّت قبل أن أستطيع استرداد أنفاسي، اتجهت إلى الطاولة الّتي تجلس عليها وحيداً، تقدّمتُ ببطء، أنفاسي تتلاحق، صدري يعلو ويهبط، وأنفي المتحسس من البرد والزكام يثير غيظي، لم تشعر بخطواتي، ولا بوقوفي بجانب الطاولة، عيناك تخترقان الزجاج بحثاً عن شيء ما عند الشاطئ، ملامحك متقلصة من التوتر ويدك تعتصر رزمة من الأوراق، جلستُ على الكرسي بهدوء، وضعت حقيبتي، وفاجأني السعال سارقاً مني متعة مفاجأتك، استدرتَ بسرعة، نظرتَ إليَّ بشرود وكأنّي جنية طلعت لك من سطور أسطورة قديمة، تقلّصت شفتاك بقسوة، خبّأتُ وجهي بمنديلي مداريةً دموعي، سمعتك بعد

برهة قصيرة تنطق حروفاً ممطوطة لم أتبين أنّها اسمي إلا بصعوبة. سألتك:

ـ أتعتقد أنّك تعرفني؟

ـ ندى، أهذه بداية؟

ـ لا تقلق، لن أطيل الجلوس فأنا متعبة، وبحاجة للراحة، سأذهب حالما أنتهي من شرب القهوة الّتي ستطلبها لي حالاً. لم أقصد إزعاجك، قضيت ساعات طويلة وأنا أتسكع، وكنت أستريح هنا حين رأيتكما، وأعادني اعتقادي بأنّك قد ترغب في رؤيتي.

ـ بل بشوق لرؤيتك.

قطعت عليّ استرسالي في السخرية:

ـ كفى، لا تكملي، عرفت الاسطوانة النسائية الّتي ستثقبين أذني بها، إذاً كنت تشربين الشاي، ورأيتني أدخل مع فتاة فنهشتك الغيرة وأعماك الغضب فخرجت، لكنّ الفضول أعادك لتعرفي من هي وما علاقتها بي، وبتعبير أدق لتضبطيني متلبساً بالجرم المشهود.

ـ أ رأيت؟ من بدأ بإساءة الظن؟

ـ أستحلفك بي، أليس هذا ما أتى بك؟

ـ كيف تستحلفني بك وأنا لا أحبك؟

تراجعتْ أصابعك بتوتر مبتعدة عن يدي، فأسرعتُ قائلة:

ـ أنت تفترض عدم حبي، ولستُ أنا من يقول ذلك، أهكذا تستقبلني بعد غياب؟

ـ اشربي قهوتك، ولننسَ صراع الديكة.

ـ ولكنّي لست ديكاً!

ضحكتَ بشدّة، وأغرقتكَ غيمةُ نشوةٍ بلجّة بياضها، غسلت عينيك بأمطارها، وطردت الأبخرة السوداء منهما فأرسلت في أوصالي رعشة، ابتعدتُ بعينيّ إلى الشاطئ وقلتُ متلعثمة:

ـ أكنتَ تتأمل الشاطئ؟

ـ كنت أتأمل ما عليه.

ـ حتّى في هذا المكان، وفي مثل هذا الصباح وأنا معك بعد غياب لا تريد أن تنسى قليلاً؟

ـ قصدك أنسلخ، النسيان كلمة لا وجود لها في قاموسي، انظري جيداً، أم أنّ الجمال يشدّك رغم كلّ ما ترينه أمامك؟

ـ أنا لا أقول ذلك، صورة بيروت كما انطبعت في ذاكرتي قبل الحرب، صورة الحناء والعرس ومهرجان الأزياء والفن وفيروز، وأعترف لك أنّي لا أرى الآن على الشاطئ كلّ هذه المظاهر الشاذة التّي احتلته، لا أرى سوى تلك الفتاة، وذلك الفتى، أتراهما؟ منذ الصباح الباكر وهما هناك وكأنّهما تجمدا كما تجمد عاشقا الروشة.

ـ الصخرتان؟ يبدو أنّك فعلاً قضيت ساعات طويلة وأنت تتأملين الشاطئ والعشاق، وتستمتعين بشرب الشاي حتّى قادتك الوحدة إلى الهذيان.

ـ هل الاستمتاع بالجمال هذيان؟ إنّك تعيش في أجمل بقعة على وجه الأرض، لا يستطيع الحلم أن يهبك مثل هذه المتعة، فلماذا ترفضها؟

ـ يبدو أنّك تكثرين من قراءة الشعر الرومانسي.

ـ أتقصد أنّي لا أشعر بما أقوله وأنقل فقط أقوال الآخرين؟ على كلّ حال أنا لا أنكر معرفتي أن لامارتين قال شعراً مشابهاً لهذه الكلمات في هذا الشاطئ عندما زار بيروت منذ زمن بعيد، لكنّي بالفعل لم أقرأ

من الشعر الفرنسي لهذه الفترة الزمنية إلاّ ما ندر، ولا أكاد أعرف من الشعراء الرومانسيين إلاّ ما يعدُّ على أصابع اليد الواحدة.

ـ حسناً لا تغضبي، الأفضل أن ننهي النقاش عند هذا الحد ونخرج قبل أن نبدأ بتوجيه الاتهامات لبعضنا. تعلمين؟ شعور صاعق حدّثني أنّي سأراك هذا الصباح، وفي هذا المكان، وسأشرب معك قهوتي، وستزيحين عن روحي ثقلاً كاد يعصرها، ولو أنّك سألتني قبل الحجز في الدير لنصحتك بأن تستأجري غرفة عند أسرة فذلك أفضل.

ـ تصورت أنّ السكن سيكون مريحاً ضمن مجموعة من الفتيات وأكثر أمنا من سكنى البيوت.

ـ هذا ما خفت عليك منه.

ـ أشم رائحة سخرية في كلماتك!

ـ لا، مجرد مرارة عالقة في حلقي، لكلّ منا ما يخاف منه!

تجاهلت ما ترمي إليه، وكموجة عدتُ إلى بحري، مشيت ملتصقة بك، باحثة عن الدفء، ودلفنا معا سيّارة أجرة، وصل صوتك أذني يهمس للسائق: صبرا، لم أرغب بالاعتراض، وصلنا بعد دقائق، فتحت الباب الخشبي بصعوبة فقد بدأ المطر ينهمر أسود، بحثتْ عيناي عن المدفأة فلم أجدها، أصبت بخيبة أمل كبيرة، وفطنتَ لما بي مباشرة، فأتيت لي بلحاف ودثرتني به، غبت قليلاً وأتيت بشاي ساخن، واعتذرت لعدم وجود مدفأة! غصصت بكلماتي:

ـ كنت أعتقد أنَّ الاحتياجات الضرورية متوفرة بعد خروج اليهود.

ضحكتَ بمرارة:

ـ أيّ أزمة مهما كانت صغيرة، أو معركة فرعية، تجعل التجار يتحكمون في المواد الاستهلاكية، على كلّ أنا لا أقيم هنا، وهذا سبب آخر.

لم تغب لهجتك الساخرة المشبعة بالمرارة عني، شربنا الشاي بصمت وتوقف حوارنا، أردت سؤالك عن أحوالك في غيابي، و...

لكنَّ أصابعك امتدت تبحث عن يدي تحت الغطاء، فماتت بقايا الكلمات التي تسربت من حلقي، واغتالني حنانك، فاتسعت مساحة الصمت بيننا، وامتدت لتشمل الشوارع التي خلت إلاّ من زخات المطر، ورشقات رصاص متفرقة في البعيد .. البعيد.

3

في الصباح أيقظتني ضجة مزعجة، كانت لينا تضع اللمسات الأخيرة لماكياجها دون أن تعير الضجة في الخارج أيّ اهتمام، وقبل أن أتمكن من سؤالها عما يجري هاجمتني بلهجة مرحة متسائلةً:

ـ يبدو أنّ سهرتك البارحة كانت دسمة، رأيته وهو يوصلك، قولي يا لئيمة أين اصطدته؟ يبدو وسيماً ولطيفاً، ذوقك رفيع.

رغم قناعتي بأنّي منكمشة على نفسي كنعامة، إلاّ أنّي تصورت نفسي لبؤة تغرس أنيابها بصيد ضعيف، بعد كلمات لينا المباغتة. لم أرغب بالذهاب إلى قاعة الطعام، وانتبهت إلى الساعة، لم يتبق لدي وقت كافٍ لمراجعة مادة الامتحان! شربت القهوة بسرعة وعيناي تلاحقان الصفحات المضطربة بسرعة قنّاص لا تنفع معها راية بيضاء بدأت ترفع في دماغي إشارة عدم استيعاب لأيّ شيء.

خرجت لينا وأغلقت الباب بخفة، وغمرني شعور بالقلق، سألت نفسي عن مدى جدية هذه العلاقة ومصيرها، ولكنّي نفضت رأسي من

أفكاره المرّة بسرعة، ونهضت لأغيّر ملابسي، وأستعد لقراءة بضع صفحات قبل موعد الامتحان.

استغرقت في الكتاب لدرجة أنّي لم أنتبه أنّ الساعة تجاوزت الحادية عشرة والنصف بدقيقتين، حملت أوراقي وخرجت مسرعة، كانت الكهرباء مقطوعة! نزلت الدرجات السبعين ركضاً، تجاوزت باحة الدير دون أن أبصر الوجوه الّتي مررت بها، حييت الحارس أبا طلال وانعطفت يميناً، ثانية إلى اليمين، استوقفتني رائحة ياسمين يمدّ رأسه الأبيض بخجل من أغصان أثقلها المطر وأعياها البرد فترنحت على سور إحدى البنايات الفخمة الملاصقة للدير من جهة الشرق، خبّأتها في جيب معطفي ماسحة عنها قطرات المطر، وتابعت سيري مرتبكة من أوّل امتحان بعد سنين طويلة انقطعت فيها عن الدراسة، عند وصولي إلى الجامعة كبر ارتباكي، لم أكن أعرف كيف أعثر على قاعة الامتحان، رحت أصعد وأهبط وأسأل هنا وهناك حتّى عثرتْ أخيراً عليّ . وعندما وضعت بطاقتي الجامعية على الطاولة، تاركة معها أوراقي وحقيبتي وجلست مكاني، كنت قد نسيت كلّ ما يتعلق بالمادة، علا صوت رئيس القاعة صارخاً بالطلاب وكأنّهم تلاميذ صغار طالباً منهم الالتزام بالصمت والمكان وعدم التحدث مع بعضهم و... و ...

كنت أشعر بالجوع، وأنتظر انقضاء الساعات الثلاث كي أراك، ترى ماذا تفعل الآن؟

وأخذتني الألفاظ الجاهلية الصعبة في دوّامتها، سحبتني إلى آثارها الدارسة وأطلالها، آكلة الوقت بسرعة. وسط تلك المعمعة لمعت ابتسامة عبلة فأنستني أبيات عنترة انتظارك. بعد انتهائي من ورقة الامتحان كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً، لكنّ موعدي معك في الثالثة! ماذا سأفعل خلال هذه الساعة؟

نزلت إلى فسحة الجامعة، الجو صاحٍ تتسرب منه شمس دافئة، جلست على مقعد أراجع ما كتبته، القلق منعني من المتابعة. خرجت إلى الشارع، يا إلهي ماذا أفعل؟ الوقت لا يكفي للذهاب إلى الدير والعودة! نزلت تجاه الجسر، قطعت الشارع وعدت ثانية، ضايقني شاب بكلمات فارغة جعلت الدم يصعد إلى رأسي، تحفزت للردّ إلاّ أنّ وجهه أرعبني، فحثثت خطاي، عدت إلى حديقة الجامعة، مرّت دقائقُ عشر، إنّها الثالثة تماماً، رأيتك تمرّ أمام الباب غرباً، خرجت مسرعة وتبعتك .

أخذنا سيّارة أجرة، نزلنا في شارع الحمراء، ودخلنا مقهى (الهورس شو) الذي كان منتدى للمثقفين لكنّ الحرب حوّلته إلى محل لبيع الشطائر، ووجدت أنّ وجبة الطعام الدسمة الّتي وعدت بها نفسي هي شطائر شاورمة وشاي!

سعادتي بالوجبة كانت نابعة من وجودي بقربك، كلّ ما حولي أخذ شكلاً جديداً لطيفاً ومحبباً لا أثر فيه للحرب والأحقاد، لم تكتمل الصورة الجميلة في مخيلتي، فقد اخترقها صوت رصاصة أطلقت في البعيد تبعها صوت رشاش، ثمّ هدأ كلّ شيء.

ـ تذكرت شيئاً، رأيتك البارحة تدسّ شيئاً ما في يد أبي طلال عند عودتنا ليلاً، أهي نقود؟

ـ وهل كنت تعتقدين أنّه يخرق القوانين ويفتح لك البوابة دون أن يرضي ضميره؟

ـ إذاً كنت تعرف هذا حين تركتني أتأخر لما بعد العاشرة؟

ـ بالتأكيد، أبو طلال سمسار متعدد المواهب، يعمل مع كلّ الأطراف المتصارعة، وضدّ كلّ الأطراف، لأنّه ببساطة يعرف قوانين

اللعبة، هو نموذج صغير، سمكة صغيرة، لكنّها طرية وسريعة الحركة والتأقلم، أنتِ لم تري القرش بعد!

ـ من أين عرفته، ومن أيّ دين هو؟

ـ التفاصيل ليست على درجة من الأهمية، أما دينه فلا أعرف بالضبط، لديه أكثر من هوية وأكثر من جواز سفر ويغيّر وجهه حسب الحاجة.

ـ يتاجر بالسلاح؟

ـ لِمَ تسألين كلّ هذه الأسئلة؟ تجنبيه ما استطعت، على كلّ حال هو خدوم إذا احتجت لأيّ شيء يستطيع تأمينه ما دمت تدفعين له، لكنّي أفضّل ألاّ تتعاملي معه ما دمتُ موجوداً.

لقد أثرت فضولي، كنتُ أظن أنّ من بيدهم الأمر، يشغلون مناصب حساسة، لكن حارس في دير؟! في الحرب تنقلب المفاهيم، ويتغيّر النّاس، تنمو الطفيليات، وتتسلق، وتمتدّ أصابعها إلى الأدراج والأوراق والأقلام، والأهم من كلّ ذلك الأختام، فيصبح كلّ شيء سهلاً، وممكناً. أبو طلال يتاجر بكلّ شيء، يشتري ويبيع بمنطق الحاجة، وبضاعته خاضعة لظروف المشتري واحتياجاته.

ذهبت بتفكيري بعيداً عن حدود المكان الذي يجمعنا، لكنّك أعدتني بنظرةٍ حادّة نقّبت في وجهي عن شيء لم أفهمه ولم تجد البداية المناسبة لشرحه لي، التزمت الصمت، وابتعدت بنظراتي إلى الشارع وأنا أرشف الشاي ببطء، ازداد توترك لعلمك أنّي أتعمد تجاهل النقاش معك، كلانا يفهم ما يدور برأس الآخر، لكنّ أحدنا لم يجرؤ على الصراخ به، كنا ندور حول أنفسنا في محاولة للبحث عن أسلوب ليّن ومتحضر لمناقشة ضارية تجنباً لجرح أحاسيسنا، رغم ذلك كان البركان ينفث دخانه بانتظار اللحظة التي سينفجر فيها.

تراجعتْ نظراتي واستقرتْ على وجهك حيث تناثرت الشظايا مخترقة جلدي، ارتعش طير ناعم في داخلي خوفاً، وخرّ مضرجاً بدمائه! ماذا بك؟ كلُّ هذه الحوارات الصامتة التي نطقت بها عيناك وأصابعك وملامحك القاسية المحايدة ترعبني.

ـ ندى.. أرجوك اسمعيني بدون انفعال، وأجيبي على سؤالي بوضوح، ما هو تصورك وبدقة عن مستقبل علاقتنا؟

نصبت لي الفخ إذاً؟ حوّمت غربان في الأفق، وثقبت أذني بنعيقها، كنت أحدس السؤال، لكنّي رغم ذلك كنت أتجاهله، وأرفض حدوثه، عليّ أن أجيب بوضوح، لكن هل الفرصة مناسبة الآن؟ وما هو السؤال الثاني الذي تحضّره في ذهنك؟ ليكن، لِمَ أنا خائفة؟ سواء الآن، أو غداً أو بعد دهر، يجب أن أقول لك:

ـ لم يكن لديّ تصور مسبق، لكنّ إجاباتي في كلّ الظروف لن تختلف، أعتقد أنّه يجب أن تنتهي كأيّ علاقة جميلة وواضحة وفيها هذا القدر من الحب والانسجام.

ـ ألم تسألي نفسك إن كنت أستطيع الارتباط بك؟

ـ ربّما لا تستطيع أن ترتبط بأخرى!

ما تفكرين به مجرد هراء، وأنت تعرفين تماماً أنّه لا تربطني بسحاب سوى قضية واحدة، أرجوك أن تفهمي ذلك، ولا تحمّليني فوق طاقتي، أريدك أن تعرفي أنّي لست ملك نفسي.

ـ وما الجديد في ذلك؟

ـ ارتباطنا شبه مستحيل، وأنا لا أريدك أن تبني قصوراً من الرمال تهدمها موجة عابرة.

ـ أنا أفهم طبيعة ما تقوم به، وأعي أنّك صاحب قضية هي في المقام الأوّل من اهتمامك، لكن هذا كلّه لا يمنع ارتباطنا، مادمت أحبك وتبادلني المشاعر ذاتها، فما المانع إذا؟

ـ ندى.. أنت تفكرين بطريقة بعيدة عن الواقع.

ـ بل أنت الذي خلقت عالماً خاصّاً بك لا تريد اجتياز أسواره الخانقة، لا أدري لِمَ تعقد الأمور؟

عيناك فرّتا من مواجهتي، واجتاحت غمامات سوداء عينيّ فأمطرتا رماداً . نهضتُ أريد مغادرة المكان، فامتدتْ يدك ترجوني أن أجلس، لمَ؟ ماذا تبقى لنجتره على مائدة المفاوضات السخيفة هذه؟ قلتَ باستسلام مفاجئ:

ـ تكاد نفسي تنشطر قسمين، قسم يريد أن يتبعك إلى آخر الدنيا، أن يختفي بك عن العيون، أن يعيش في عالم لا حروب فيه، لا دمار، وقسمٌ يشدّني إلى الواقع المرّ بعنف فأعي بوضوح أنّه لا يمكن أن تجتمعا معاً أنت والسجن، أو أنت والموت، لا، هذا ما لا أستطيع احتماله.

ـ ولم؟ لو أردت ذلك لاستطعت، أنت لا تريد، لذا لا تستطيع، هل رجال المقاومة كلّهم دون زوجات وأولاد؟ من منا متأثر بما يقرأ؟ انظر ماذا فعلتْ بك النظريات، ها أنت تصنع من نفسك بطلاً مثالياً.

لم كلّ هذا الصراع والتشتت، أنت قلت لي إنّك ترفض الموت وتحبّ الحياة، أم أنّي أتوهم ذلك؟

كيف تريدني أن أتخلى عن حبك؟ أعترف أنّي بحاجة لزمن طويل إن أردت دخول معركة تغيير ما بداخلك من أوهام.

كانت بوادر الإعصار تجتاح جبينك فيتغضن، وتتسرب لسعات النّار إلى أعصابي ناشرة في الجوّ رائحة جسد يحترق، أم هي رائحة إطارات؟

تصمت، وأشعر أنّ الصمت امتدّ دهراً وأنّنا ابتعدنا عما علق فيها من حوارنا الكئيب المتوتر.

ـ ندى ... قد لا تريننني ثانية، أنا مسافر... وقد لا أعود.

انفجر البركان، طارت حممه حارقة إحساسي بالأمن، بارتباك أخفى نبرات صوتي حاولت معرفة وجهتك. حدّقتَ بثرثرتي مستغرباً، تاركاً مساحة الصمت بيننا تجيب باستهزاء على فضولي، نظرتكَ أكّدت دعوة الحبّ، ورفض الزواج، تركتَ رماد انفجارك في قلبي ونهضتَ مسرعاً، ناولتني أوراقاً مطوية على استعجال، نفس النظرة أجابتني باستحالة الإفصاح أكثر، نهضَ جسدي متحركاً جهة الباب، وبقيت روحي هناك متشبثة بمقعدها تعاني آثار الانفجار القاتل، توقف الحوار تماماً، كنتُ أرغب أن تقول شيئاً ما، أيّ شيء يفسر لي، يطمئنني، لكنّك كنتَ بعيداً بجسدك ومشاعرك، وحركاتك، لم أعد أسمع صوت خطواتك على الرصيف، كنتَ تطير، تتسرب من بين أصابعي رمالاً ناعمة تتلاشى في مياه البحر، حاولتُ أن أبدأ حواراً اكتشفتُ عقمه مباشرة، قوة خفية أخرست الكلمات في حلقي، وشلّت تفكيري، وتركتني محنطة ضمن شرنقة اللحظة الّتي ألقيتَ فيها بوجهي خبر النهاية، ولكن ! أهي حقّاً النهاية؟ هل أستسلم لهذه الأفكار المقيتة؟ ووجدتني التصق بك وأستوقفك وسط الشارع:

ـ قل إنّك ستعود وهذا يكفيني.

ـ صدقيني لا أستطيع أن أعدك.

ـ عدني أن تحافظ على حياتك ما استطعت.

ـ أعدك بالمحاولة .

بسرعة أوقفتَ سيّارة تآمرت معك في ظهورها المفاجئ، احتميتُ بها من البرد الذي غزا مشاعرك نحوي وسمعتك تغلق الباب خلفي وتجلس بجانب السائق طالباً منه التوجه إلى الدير! تصرفك ذاك كان كافياً لنسف بقايا حوار حاصر حنجرتي فأخرس شهقاتها، حسمتَ الموقف ولم تترك لي فرصة لوداعك، أكنتَ تخشى لحظات ضعفك أمامي؟ أم أنّك أردتَ إبعادي عن قضيتك بوعي تام؟ هل حقّا تحبني؟ طرق السؤال رأسي بقبضة حديدية تاركاً صدى فراغ مفزع فيه، انتشلني صوتك من لجّة أسئلتي المتضاربة:

ـ ندى، انزلي، لقد وصلنا، تصبحين على خير .

ـ أرجو أن تعود سالماً.

خرج اسمي من شفتيك جافاً محذراً غريباً. لأوّل مرة اسمعه شاذاً، يتلون بالبرود والقسوة الحادّة، حاملاً رائحة إهانة امتدّت إلى وجهي وصفعتني بقسوة، ورأيتني أهرب من السيّارة وأركض، أركض، أعبرُ ساحة الدير، واتجه إلى الاسانسير وكعادته معطل، صعدت الدرجات، أتعثر بالعتمة ودموعي، لكنّ غضبي كان أكبر من إحساسي بالهزيمة والمرارة، كنت أريد ردّ الصفعة بأعنف منها، لكنْ لم كلّ هذا؟ أخفتَ أن أنطق شيئاً أمام السائق؟ هل تعتقد أنّي غبية إلى هذا الحد؟

صعدت الدرج، امتدّ إلى ما لانهاية، وأنا أجرّ جسدي من الإرهاق وبقايا كرامتي ومشاعري الّتي اغتيلت في مهدها، فجأة صفعني الهواء البارد المتسلل من البحر عبر العتمة وسياج السطوح ! عدت أجرّ تشتتي متلمسة طريقي عبر الممر الطويل المعتم، انعطفت يميناً فإذا بي أتوه ثانية، ورحت أتملى وجوه الأبواب محدّقة بالأرقام حتّى وصلت

غرفتي، فتحت الباب أخيراً، أشعلت شمعة وارتميت على السرير، دفنت رأسي فيه وبكيت، بكيت حتّى جفّت دموعي، استلقيت على ظهري فابتسمت البقعة البنية المتراقصة على ضوء الشمعة ومدّت لي لسانها بتشفٍ، وسمعت صوت ضحكات عالية من الغرفة المجاورة، تمنيت لثوان أن يمدّ الصاروخ رأسه من البقعة فينهي لحظات المرارة الّتي أعيشها، لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث، بل أضاءت الكهرباء الغرفة، فنهضت ألتمس بعض الدفء من هواء مجفف الشعر، وضعته تحت الغطاء قليلاً فتسرب الدفء بطيئاً إلى جسدي، وبدأ ذهني يصحو من هذيانه، فنهضت وصنعت فنجان قهوة، ورحت أرقب الموج المظلم في قلبي والتبدلات الّتي غزتني خلال الساعات الماضية. تذكرت الأوراق الّتي أعطيتني إياها، أخرجتها من الحقيبة، كانت السطور النازفة غير واضحة، فقد كتبت بسرعة، وبدون اهتمام:

أيّتها الحبيبة، صباح الخير
لعينيك الاغتراب،
أنضح ألماً، وتشربين
سقياً أيّتها المسافات،
تعبرها قطرة ساخنة سالت على الصدر
لعينيك ألمٌ وألق
غرغرة العصافير العطشى
ونشيج ناي،
لعينيك أديم يبسم،
ضحكةٌ تموج على النبض كالهديل
أضمها إلى صدري، وأختنق،
نزفٌ يشدني إلى بحار ابتعدت مرافئها..

إلى عيون تنتظر القربان،
يخلّصها من الأسر
نزفٌ يرفع الأطفال راية،
يطرح البنادق في الأيدي
ليصوّبني رصاصة
تنبثق من حلمة ضوء
تتسلل إلى الزنازين الجديدة،
نزفٌ يشهر الدمعة الساخنة في وجه القناص،
ويمضي
أيّتها الحبيبة،
افتحي عينيك،
ثمّة بالقرب منك
عصافير وأغان تغتصب،
مروجٌ كانت بالأمس خضراء
افتحي عينيك قليلاً
ثمّة بالقرب منك
أشجارٌ وغابات من الأرز
تجتثها فؤوس القمع
وأحلام الماريشال
افتحي عينيك قليلاً
كي تريني قبل أن يجتاحني الطوفان!

/ 1986 / 1 / 18

غفت الأوراق بجانبي، ولفّني جوّ الحلم بكآبةٍ وكوابيس مزعجة، ولم أشعر إلاّ صباحاً عندما أيقظتني لينا، ووجدت أوراقك المبعثرة، وقهوتي الباردة، وبقايا سجائر مطفأة ...

لملمتها، واستقبلت وجه يوم جديد ليس لي!

4

مرّة ثانية أغرق في الذهول لأستحضر لحظتك الحارقة ببخور ذاكرتي المتعبة وأضمخها بعطر ليلي الكئيب، وأزيّن تلك الأمسية الّتي انتشرت كوابيس مزعجة في أوردتي، بحروفٍ ناعمة وأساطير خرافية، وأرتشف لحظات لقاءٍ رائع، قطرة، قطرة..

يسرقني البحر من نفسي كلّ صباح، فأجدني أسعى للقائه وكأنّ الموج سيحملك إليّ.

إلى متى سأبقى متعلقة بأذيال تلك اللحظة الّتي لم تقل فيها إلى اللقاء!

إلى متى سأنتظر حضورك الذي لا يفارقني؟ وكم؟ كم من الوقت بقي لينتهي امتحاني وأهرب من وجه بيروت الحزين، ومن ذكرياتي معك، ومن علاقة فاشلة أخرى؟

هل كانت علاقتنا فاشلة؟ معك شعرت بالأمان رغم جوّ الحرب و التناقضات الّتي تعيشها، معك شعرت أنّي أختار بملء حريتي وأنّك مختلف، لكنّك تركتني فعلاً، وربّما لا تعود!

ألن تعود؟ بل ستعود، لكن هل أستطيع قلب مفاهيم غرستها الحرب والأحقاد، والجثث المتعفنة في طرقات صبرا وقلبك؟ أشعر

بالإحباط قد زحف إلى عقلي أيضاً.. لا.. لن أترك غيابك يفعل بي هذا، سأهجر البحر، سأوقف سيل الزيارات اليومية للشاطئ، فموجه الرمادي الغاضب، وسماؤه المتقلبة يمنعاني من التفكير بشكل صحيح، سأفر، الهرب أفضل الحلول.

ودّعت الرملة البيضاء وسرت صوب الدير متجنبة المرور بالمخيّم، مبتعدة عن المنطقة الّتي شهدت أوّل لقاء بيننا . قبل وصولي إلى غرفتي هاجمتني ضجة غريبة في الداخل لم أستطع تبين الأمر مباشرة، فقد ازدحمت الغرفة بالفتيات وغصَّ الجوّ بالضحكات المتفاوتة النغمات، وفهمت أنّي لن أستطيع الاسترخاء والتخلص من الحالة الّتي تتلبسني، وأنّ عليّ مجاملة الموجودات رغم كرهي لذلك، كانت لينا تصرخ بمرح محتفلة بعيد زواج خلبي، رمتني بنظرة خبيثة تسبر ما في داخلي من ألم. أهي مهرجة هذه المرأة؟ سخريتها المرّة، واحتفالها الصاخب بلا شيء صدمني وصدمني أكثر إصرارها على أنّ ما تفعله حقيقي ويستحق الاحتفاء من الآخرين! ما الذي تريده مني؟ أتريد الترفيه عني حقّاً، أم إثارة أعصابي؟ تابعتْ حديثها تعرّفني بالفتيات:

ــ عبير، من حماة، تدرس الأدب الإنكليزي، معجبة جداً بشكسبير، لكنّها لم تقرأ إلى الآن مسرحية واحدة له، ستفعل ذلك إن تزوجت بإذن الله، فهي تخشى أن تتعقد نفسياً. خالدة، من دير الزور، مدربة فتوة، عادت إلى الدراسة علّها تحظى بعريس لبناني لا يهمه الشكل، ويبحث عن المضمون الذي لا تملك منه شيئاً والحمد لله. ريم، ابنة عمي، حقوق سنة ثانية إلى الآن لا تعرف التفريق بين الحقوق المدنية والجزائية، ذلك لا يهمها كثيراً لأنّها مخطوبة وستدخل الباستيل قريباً، لذا تعيش الآن آخر أيام الحريّة في بيروت!

تأملتُ الفتيات مستغربة استجابتهن للتقديم بالضحكات. هل أنا الّتي أحمل السلم بالعرض؟

كنَّ مجموعة منسجمة يتبادلن الطُرف رغم اختلاف البيئة والمزاج والأديان، حتّى أشكالهن متنافرة. خالدة كانت تدخن بشراهة وتتحمل الكلمات اللاذعة الموجهة إليها وهي تبتسم مظهرة لمن حولها أنّها ليست بلهاء، لكنّها راضية بهذا الدور الذي تتقن تمثيله ويتناسب مع شكلها الخارجي.

انفضَّ الاحتفال الغريب، ذهبت ريم إلى الجامعة كما قالت! وجلست لينا بجانبي هامسة:

ـ ألن تقولي ما بك؟

ـ لا شيء. فقط أشعر أنّ جسدي يأكلني، أخشى أن أكون قد أصبت بالجرب، المحاليل لم تعد تجدي.

اقترحت لينا أن أذهب معها إلى بيت أقاربها لأستحم، فالمحاليل تزيد لزوجة الجسد والإحساس بالقرف . لكنّي رفضت، أكثر ما كان يقلقني مياه الشرب، فالآبار في هذا الجو مكان مثالي لانتشار الأوبئة . لمْ تستطع لينا بمحاولاتها المتكررة أن تنزع كآبة تشبثت فيّ ولم يعد لي مخرج منها. ولمْ أرغب في الحديث عن تلك الأوراق المبعثرة، رغم إلحاح لينا.

لامتني نظراتها، وبختني بلطف، لينا كانت تريدني أن أعرف كلّ شيء عنك، لا تريدني أن أتورط بعلاقة محفوفة بالمخاطر في جوّ غير صحي، لم أتوقع أن تكون لينا بمظهرها اللامبالي تملك حذراً من ألغام بيروت العاطفية، لا أدري لِمَ وجدتها مندفعة في تصرفاتها غير عابئة بما يجري، خاصة بعد ذاك الاحتفال الهزلي بعيد زواجها، فكرة خطرت لها أخرجتها من جوّ الكآبة. إنّها امرأة تخترع ألعابها

الخاصة لتعود إلى طفولتها، تدخل عالماً غير مرئي، تسترجع ماضياً كانت فيه عروساً من الجبس، كلّ شيء فيها مبهر ومرسوم بدقة ! فلسفتها في الحياة توافق رغباتها، تستمتع بوقتها بالطريقة التي تسنح بها ظروفها، لكن أين ابنها من كلّ هذا؟ يبدو أنّي سألت سؤالا لم يكن متوقعاً، فقد مرّت غيمةٌ سوداء في عينيها وتقلّص وجهها للحظات، ثم عادت لتضحك بتشنج:

ـ ما به؟

أرى أنّك لم تدخليه ضمن إطار الوقت الذي تحاولين جعله سعيداً، أين هو فيما ذكرت؟

ـ قلت لك، إنّه عند جدته .

ـ وأمومتك؟

تحفزت واثبة من السرير:

ـ أرجوك لا تدقي على هذا الوتر، غيّري الحديث، و إلا سأترك لك الغرفة.

لمع وجه المرأة الحقيقي الذي أخفته عني بالأصباغ والضحكات والنكات الفارغة، كنتُ أريد غزوها من الداخل، منعني الإرهاق وشعوري بأنّي تدخلتُ في أمر لا يعنيني وقسوت على تلك المرأة الّتي فتحت لي قلبها على مصراعيه. لم تمض دقائق على استلقائي حتّى رنَّ جرس الغداء، جرجرت قدمي حتّى الأسانسير! ولم أستطع صبراً في قاعة الطعام فسكبت في صحني وعدت إلى غرفتي مخالفة اللوائح والقوانين.

5

مرّ أسبوع على آخر لقاء بيننا، عشرة أيام وأغادر بيروت، شعور مريح ينتابني رغم تأخرك ويهمس لي نبض مضطرب: (سأراك قريبا). في ظهر اليوم الحادي عشر وأنا أشرف على البرد يجتاح البحر ويقاوم نعاساً قاهراً ألمَّ برأسي، سمعت طرقات مستعجلة على الباب، فتحته، رأيت فتاة لا أعرفها، قالت لي بسرعة إنّ شخصاً ينتظرني في الساحة. من يا ترى؟ ارتديت معطفي الصوفي ونزلت الدرجات مسرعة وأنا أحاول نفض النوم عن عينيّ وكتم تثاؤبي بيدي، عندما وصلت الساحة، أطار الهواء البارد بقايا النعاس، ولمحتك، كنت أحاولُ تجاهل فكرة حضورك كي لا أصاب بالخيبة، وقد نجحت المناورة الصغيرة الّتي سوّرتُ بها مشاعري، توقفت قليلاً ريثما التقطتُ أنفاسي، سرت إليك ببطء محاولة السيطرة على موقف اللقاء مددت يدي بلا حماس في الظاهر:

ـ الحمد لله على السلامة.

كانت عيناك تزهران بآلاف النجوم والغيوم البيض ولا مطر! أكنت أريد السؤال عن عودتك، متى؟ وأين ذهبت؟ حضورك طرد الأسئلة، أمسك بعنق قلقي، طبع قبلته على حواف الروح فأحدث زلزالاً أسكرني ترنحه، وصهرتني حممه، أخفيت ترددي في إغاظتك برفض الدعوة بحجة انشغالي بالامتحان، لأنّي لا أريد إيلامك أكثر.

ـ لا بأس أذهب، لكن لن أتأخر.

نظرت إلى نفسي ضاحكة وركضتُ صاعدة الدرجات قبل أن تفضحني دموعي، ركضت قبل أن يفضحني ارتعاش يدي. ارتديت ملابسي بسرعة، حملت حقيبة يدي، واستوقفتني المرآة، وعادت

كلمات لينا تلح عليّ ((اغسلي هذه الكآبة عن وجهك)). مددت يدي ووضعت بعضاً من أحمر شفاه كاشف، وهربت من مواجهة المرآة، عندما رأيتني قادمة نهضتَ خارجاً من غرفة الانتظار، ومشينا جهة صبرا، كنتَ تنظر إليّ بين الحين والآخر متفحصاً، فأهرب بوجهي إلى جهة معاكسة قبل أن نصل البيت أخذتَ يدي:

ـ ألا تشعرين بالبرد؟ هاتي يدك، دعيني أشعرك بالدفء.

مددت يدي إلى جيب سترتك، تأملتني ضاحكاً:

ـ أراك أجمل من أيّ وقت مضى!

لم أتوقع كلماتك، خجلت من مواجهة زينتي الطارئة، وتوقعت أن تسخر مني كالعادة. احمرّ وجهي خجلاً، لكنّي تركت يدي لك، ملتصقين مشينا واحتوتنا الغرفة الصغيرة. خلعت معطفي واقتربت من المدفأة الكهربائية، علّقتَ:

ـ خشيت عليك من البرد، في المرّة السابقة نسيت أمر التدفئة.

تجاوزتُ ملاحظتك متسائلة:

ـ كيف كانت سفرتك؟

رددت بنفس الأسلوب:

ـ ماذا فعلتِ أنت أثناء غيابي؟ لابدَّ أنّك كنت تزورين البحر يومياً.

ـ هربتَ من سؤالي بسؤال؟

ـ ما زلتُ على قيد الحياة؟ حدّثيني أنت ماذا فعلت؟

أحقاً تريد أن تعرف؟ ولماذا؟ لماذا أجترُّ مشاعر قاسية تملؤني بالذل والارتباك؟ دعني أستحم بلحظات اللقاء الحلوة، وأبعد عني شبح ذلك الأسبوع الأسود الذي قضيته بعيداً عنك.

6

الأسبوع الأسود!!

كأنّ ندى كانت في القلب، حملتُها في حقيبة الروح إلى محطات السفر، دخلتْ دورة أرضي، عانقتْ ذاك الوجع، وانطلقت من أسره بعيداً في فضاء ليس لي!

أتستطيع هذه المرأة المسالمة حيناً، المتمردة المقتحمة حيناً، أن تستشف ما وراء روحي من أزمات وانكسارات؟ وتعي في حوارها الدافئ لجسدي أبجدية الصمت، وتفك شيفرة الشهوة؟ وتعلقني في العنق حجاباً للتملك، وتقترب بي من أودية الجحيم !؟

أحسّ ندى أحياناً قيدي، تجرّني إلى زنازين الرغبة صاغراً وتترك جسدي للريح، أحسّها بحراً، يشاغلني مدّهُ ليقتنصني في غفلة من عواطفي جزره، تراوغ، تهادن، وتثور، امرأة لكلّ أرض، ولا أرض لي، الجهات كلّها تسحبني نحو الجنوب، ترميني على شاطئ أصبح لهم رغماً عن نبضي .

نادراً ما أشعر بذلك التسلط الذي يفرضه حضورها ويجعلني أقتات ذكريات يابسة لروحي،

هل اتخذتْ عني القرار؟

لم أعتقد أنّ لندى ذلك التأثير الخفي على عواطفي، صلبة كرمح، امتشقت قامتها بمواجهة البحر، وهمستْ لأعصابي (امض، أنتَ لي، اذهب في كلّ الاتجاهات الّتي تريد، أبحر إلى موانئ العالم كلّه، ستدور بوصلتك صوب أرضي وأصبح منفاك.)

الأسبوع الأسود!

همستْ لي سحاب:

ـ القضية جدية، لا تقلل من شأن ما يستطيعون فعله، لن تُكلّفَ أكثر من رصاصة.

أعرف أنّي لا أساوي أكثر من رصاصة عند هؤلاء الذين يتصارعون على طريقة العودة، وأولئك الذين يتفرّجون حاشدين على أرضي أسلحتهم الفتاكة وحقدهم، أنا متهم بالعفوية، والثبات، لم تغرني سلطة أو نفوذ، لم أر في مكاسبهم خط العودة الذي لا تحيد أسلاكه الشائكة عن أصابعي، متأكدٌ أنّ الخدمة في صفوفهم المتطرفة لا تقدم لي شيئاً كإنسان، لم يكن الجنوب وجهتهم!

أأتهمهم؟ بل أنا متأكد أنّه لا مفرّ فالبحر أمامي والعدو خلفي وقدري يتربص بي عند كلّ منعطف ووراء كلّ جدار. في عين الحلوة التي عدت إلى خرائبها آملاً بفعل يعطي نكهة البارود لوجودي ـ كما أرادت أمي ـ كما أراد انتمائي.

سحاب قالت لي بصوتها الصافي:

ـ لن يفيدك اختباؤك، إنّه انتحار بطيء، اخرج، فإمّا أن تموت موتاً مجانياً أو تهرب.

أصرخ:

ـ لا يمكن أن أفر، كيف تريدين أن أترك كلّ هذا؟

نبراتها الثابتة تخفق بأجنحتها في روحي:

ـ لا ضرورة لوجودك هنا، ساحتك هناك، حيث تخطّ حرفك، وتقاتل بألوانك.

ـ لكنّهم سيقتلونني!

ـ قدّمْ شيئا تستحق عليه القتل، لا تتركهم يصفّون وجودك لخلافات سخيفة، كلّ الأرض، كلّ التراب، نصف التراب، السلام

والاستسلام، قل ذلك بلون مختلف، صراخك بوجه قائد الفصيل لن يتجاوز جدران غرفته في المخيّم، ورصاصته الّتي ستقنصك في غفلة منك لن يسمع صوتها سوى أعضائك المنتفضة.

سحاب لم تكن تلمس الجرح صدفة، كانت تفهم ما تريد وتشجعني على تنفيذه حاسمة ترددي لصالح وجودي، لكنّ ندى تبرز كآلهة تطالب جسدي بحقوقها فيه! بيد من حرير تسحبني نحو عالمها، أشتم عطرها، تنفرد الضفائر الدمشقية شهيّة على كتفيها، تغوص الابتسامة بدعوة مواربة، تنفرج عن أفق الرغبة، يتقدم جسدي، تتراجع روحي، أغمض عينيّ، أبقي مسافة للخوف والحذر بيننا، تلحّ ابتسامتها في دعوة صارخة، يدي تدفع الدمع، يدي تسقط عاجزة!

7

انقضى الأسبوع الأخير لي في بيروت دون أن أشعر به، كنت أتنقل بين الروشة ومار الياس والجامعة وصبرا وكأنني خلقت في هذه البقعة المحببة من الأرض، ونسيت خلال هذا الأسبوع كلّ ما يربطني بدمشق، بعملي، بأصدقائي، بأهلي، بغرفتي الصغيرة، والشاي من يد رشا وأغاني عبد الحليم المتسللة من نوافذ الجيران، وعمر بأكمله، سنين طفولتي ومراهقتي، والحبّ الأوّل، وتلك الوجوه الملتصقة بعروقي كلّها غاصت في ركنٍ منسي داخلي وأيقظه دفعة واحدة اقتراب موعد سفري .

كنت أحاول دفعك لزيارتي، وتحرص على تهرب جميل دون ألم!

مرّت الساعات كومضة برق، وتسربت كالماء من بين أصابعي، ووجدت نفسي وجها لوجه أمام أشدّ الساعات إيلاماً، الساعة الّتي سأودعك فيها، وأودع بيروت، وأودع كمية هائلة من السعادة والحيرة والتردد عشتها معك خلال أقل من شهر! ووجدت أنّي مضطرة في تلك الفترة لاتخاذ قرار نهائي أحسم فيه ترددي، وأقضي على حيرتي، فهل أستطيع؟

أجّلت اتخاذ القرار إلى الصيف القادم كي أعطي لنفسي فرصةً أخرى أناقشها على مهل، أراحني هذا الحل، حملت حقائبي المحشوة بالكتب والملابس وأشياء أخرى.

كانت لحظات الوداع تعجُّ بالارتباك والكلمات المبتسرة السريعة والتمنيات، وانطلقت السيّارة إلى دمشق.

المسافة القصيرة بين بيروت ودمشق امتدّت إلى ما لا نهاية متعثرة بالمطر والأوحال، غاصّة بالبرد والثلوج، مغتسلة برائحة الصنوبر والصفصاف، مختلطة بمشاعري القلقة المتناقضة، واستمرّ المطر غزيراً.

اقتربت دمشق.

لاحت مصابيحها مرتجفة تختبئ وراء ضباب خفيف، وارتفع صوتٌ من مذياع السيّارة يتردد صداه في مساحات شاسعة من حقول الليمون والبرتقال.

أنا نازح داري هنا

وكرمتي، والمنتدى

أنا صانع الحقّ الكبير، وصانعٌ منه الغدا،

أنا لن أعيش مشردا

أنا لن أظلّ مقيدا

وانطلق صوت المذيع معلناً عن إذاعة فلسطين من دمشق، فأيقنت أنّ الساعة تجاوزت السابعة والنصف، وأنّي بحاجة ماسة للنوم، لكنّ النوم جافاني، وامتلأ حلقي بطعم مر، وأعادت إليّ الأغنية شجناً قديماً كان يغزوني للحظات ثمّ أنسى، لكنّه هذه المرّة حمل معنى آخر، تسللتَ إلى إطار الصورة ممزوجاً بالتراب، وتسللتْ إلى أنفي رائحة الصنوبر البري وهزّتني نبرات صوتك:

ـ أنت تنظرين للقضية على أنّها حلم رومانسي، ليست القضية أغنية لفيروز تتناولينها مع فنجان قهوتك الصباحي ثمّ تنسينها في زحمة العمل، مهما أنّت (سنرجع يوما إلى حينا) وإن مرّت في شوارع القدس، هل تعيد القدس أغنية؟ القضية فعل قبل كلّ شيء.

ـ لا أنت مخطئ، لستُ سلبية هكذا، على كل حال لا تستطيع إنكار رومانسية الفعل عند شعراء الأرض المحتلة.

ـ الشعر ليس قضية.

ـ بل هو كذلك، ودوره في القضية لا يقلّ عن دورك، وإلا فالأفضل أن ترمي قلمك.

ضحكت بسخرية، وتابعتَ صمتاً قاتلاً.

مخطئ، رددت أعماقي المجروحة، مخطئ وظالم، لستُ سلبية، لكنّك دائماً تضعني في موقع الدفاع عن النفس، أجد نفسي مهزومة ومشتتة، وأصغر من فأرة في مصيدة، من قال إنّي لست سلبية؟ يا للسخرية، صحيح أنّي لم أعد أنظر للقضيّة من زاوية عاطفية يغمرها صوت فيروز المنسكب كنهر هادئ (سنرجع يوما إلى حينا ونغرق في دافئات المنى) ومن التصاقي ببرامج الإذاعة ورسائل الأحبة إلى ذويهم في (صوت فلسطين)، لكنّي أجدك على حق، أين الفعل في كلّ ما أشعر به؟ هل تتحرر أرض بشعارات عاطفية تحفظها القلوب وترددها

الألسن في المناسبات؟ هل صوت فلسطين وأغان حماسية كلّ ما نستطيع أن نهب لتلك الأرض المغتصبة؟ كم أنا تافهة وحيادية!

لكنّي الآن أشعر بطعمها ممتزجاً برائحة البارود ورصاص القناصة في بيروت، وأشلاء الجثث في صبرا، ومواعيدنا في ليل بلا ياسمين ولا بحر، لقيمات جافة، ودمع ناشف، ويدك تضرب الجدار بتشنج وغيظ، معك حق، لولا دخولك حياتي لما شعرت بهذا الطعم المر، وهذا الحصار.

8

اهتزت السيّارة بعنف وهي تتوقف، ارتطم رأسي بحديدها الأسود الصدئ، معلناً انتهاء الرحلة، و عودتي إلى قوقعتي محتمية بجدارها الصلب من هواجسي وأعاصيرك. لاحظت حركة غير عادية في بيتنا، الأنوار مضاءة، ضحكات قريبة، جو من البشر أنذرني بسوء، قرعت الجرس، فتحت رشا، فرحة طاغية رقصت في عينيها، همست لي بفرح:

ـ العائلة مجتمعة في انتظارك.

كانت كلماتها صاعقة، انقضت على حواسي، فاستنفرت كلّها متحفزة للدفاع، لم يسبق للعائلة أن اجتمعت بانتظاري، ولم يسبق لأمي المريضة أن نهضت من فراشها في مثل هذا الوقت حتّى ولو كنت على سفر..!

دخلت غرفة الجلوس، جالت عيناي في وجوه الموجودين مترقبة حذرة، وفهمت في لحظة أنّي في مصيدة، فالأمر خطير على ما يبدو،

ألقيت السلام متجاهلة مشاعري، بادرتني الشفاه في شبه إجماع بعبارات التهنئة بالسلامة، وتلا ذلك صمت، خلته سينتزع روحي من سكونها، نظرت أمي في عيني أبي، فأدار رأسه متشاغلاً بسبحته. تلكأت أمي:

ـ اجلسي يا ابنتي، نريدك في موضوع.

صاحت رشا مبتهجة:

ـ إذاً سأحضر الشاي.

سكتت أمي، نظرتُ في عينيها مشجعة، غلى في داخلي بركانٌ كان هامداً قبل ساعات، لعنة الله عليه، لقد فعلها، كنت أتوقع منه تصرفاً طائشاً كهذا، حاولتْ أمي الابتسام وهي تسألني عن امتحاني. مقدمة لا بأس بها للوصول للغرض الذي أفصح عن نفسه، رشا لم تشأ الانتظار، وبدون مقدمات قالت:

ـ جاءك عريس، وأهلك موافقون، وينتظرون موافقتك، ما رأيك؟

لم أعد أسمع شيئاً، فكرة واحدة سيطرت عليّ كيف سأنتقم منه، جلست ورأسي بين يدي وكلمة واحدة تحرق أعصابي (لقد فعلها). تصبب العرق البارد من جبيني، و غسلت دموعي خدي، ركضتُ هاربة إلى غرفتي، تاركة العيون مفتوحة حتّى آخرها دهشةً.

هل كانت رشا تدرك أنّها ألقت في سمعي نبأ موتي؟ دستُ جسدي المرهق تحت اللحاف، ورحت أنشج بعصبية، موافقون! كيف؟ كيف يحدث ذلك؟ وأنا؟ أنا، أين أنا من كلّ هذا؟

وقصتنا؟ هل ستنتهي تحت سنابك الفارس المغوار الذي استغلّ غيابي، واقتحم قلوب أهلي؟

توقفت قليلاً عن البكاء، استويت جالسة في الفراش، مسحت دموعي، تأملت الجدار بدهشة، لوحة كبيرة أطلّ منها وجهك يتلوى

ضاحكاً باستهزاء (عريس يا ندى، وماذا في ذلك؟) طرقات خفيفة على الباب، دخلت رشا على إثرها حاملة الشاي، توارت صورتك مختفية في ثنيات الألوان الباهتة.

أختي الصغرى وعت بإحساس أنثى تتفتح على الحياة ما وراء دموعي وهربي من المواجهة، وأرادت أن تفهمني ما يجري، فالعريس كما يراه أبي بيده الحلّ المناسب لمشاكلنا المادية!

من يكون؟ ثري ! يعني ليس مدحت، آه ما أغباني، كان عليّ أن أفهم مباشرة أنّ عريساً كمدحت لن يجلب معه الحلول السحرية لوضعنا المادي المتأزم .

صمتت رشا على استحياء ولم تبد رأيها الخاص، كان صمتها أوضح من أيّ رد، هكذا إذاً، عريس غني، ومعه مصباح علاء الدين، رشا ستدرس الطب، وتحلم بعيادة خاصة، وتحلم بـ... هل أصبحتْ أحلام هذه الأسرة البسيطة متوقفة على انتحاري؟ هل أصبحتُ القاضي الذي سينطق بالبراءة أو الإعدام؟ حاصرتني رشا بعينيها، لكنّي لم أستطع أن أنكأ جراحي وأستخرجك منها، لم أستطع أن أمد يدي إلى قلبي لأنتزعك منه، لم أستطع أن أتحدث عنك، كنت أعتبرك سري المقدس الذي لا يجوز لأحد أن يدنسه بالإطلاع عليه، لكنّ عيني رشا العاتبتين بإلحاح دفعتاني إلى التراجع والانهزام إلى داخلي لأنتزع قطعة منه، وأقدّمها على طبق الحوار لعيني شقيقتي المتفرستين بدهشة في ملامحي. سؤال يتيم على شفتي رشا صعقني ولم أجد جواباً لائقاً أفهم به هذه الصغيرة العاقلة طبيعة علاقتي بك، لم أستطع أن أقدّمك لها بصورة مقبولة لعريس، لأنّي لست متأكدة من شيء، تابعت رشا حصارها بأسئلة ساذجة:

ـ حدّثيني عنه، ماذا يعمل؟ أين التقيته؟ منذ متى؟ لماذا لا يأتي لخطبتك؟

توقفت عند سؤال رشا، حقّاً! لم يخبرني لماذا، اكتفى بالقول (لا أستطيع المجيء إلى سوريا). الصمت هو ما استطعت مجابهة رشا به، ماذا أخبرها، أنا نفسي لا أعرف سوى حقيقة حبي لك، احترمت رغبتك في الكتمان!

انسحبت رشا من الغرفة تجرّ خيبتها، تراها تخبر والدتي؟ لا، لا أظنها تفعل، أمي لن تحتمل. استويت في فراشي، عاد السؤال يلحّ بحضوره، لماذا لا يأتي؟ لكنّه لا يريد خطبتي، فلماذا يأتي؟ كنت أفتح عينيّ على حقيقة مرّة، لقد بات مصير هؤلاء السجناء بيدي فأيّ نوع من الأحكام سأنطق به؟

بين حريقين

1

هل تستطيع ندى معرفة ما بي؟

لا، ندى لم تنتبه حتّى إلى رفضي زيارة دمشق، لم تسألني عن السبب، تراها اعتقدت أنّي رفضتها، برفضي زيارتها؟

لن يذهب خيالها لأبعد من ذلك، أنا لم أخبرها عن طفولتي المشردة في الرمل الفلسطيني، حين حدّثتني عن اللاذقية تجاهلت الأمر، لم أخبرها أنّي عشت زمناً في سوريا، لم أقل لها إنّ رسومي هناك على جدران المخيّم لا تزال شاهداً على انتظارٍ ما برح يقطّع لحم ذاكرتي ويتسلى بمنظر نزفي.

أنا أعرف أنّ ندى تنبش أحاسيسي المدفونة في ركام المأساة وتساومني على صمودي أمام إغراء الأنثى والوطن، لماذا لا أستجيب؟ أهي رغبة في قتل ذاك القابع المتمرد في الشرايين؟ أنا أنزف وجعه وأصمت رافضاً مصيري.

رأسه المليء بأشواك العودة، يطلع شمساً لم تتمطَ أشعتها بعد في سطور جريدة مهملة!

على جدران المخيّم في عين الحلوة كتب وجوده الرافض لشهقات البكاء والعجز، منطلقاً نحو الأفق في اتجاه الوطن المسروق! أكنت أستطيع استعارة ردائه ذاك؟

حاولتُ مراراً، رسمتُ الوجه الآخر لحنظلة*، لكنّي فشلت في جعله يستدير لأرى الدمعة العالقة بالهدب، سيبقى رافضاً الإفصاح عن دمعه حتّى يصل حدود (الشجرة)، أريده أن يدير رأسه ليواجه نظرات الاستفسار، التعجب، الإعجاب، والابتسامات الفارغة، لكنّه يرفض تسليمي مفاتيح اللعبة! يبقى عاقداً ذراعيه، لا مبالياً بتساؤلاتي الفارغة، رافضاً أن يبقي بقبضته حجراً لزمن لم يعد فيه سوى الانتظار.

ولماذا يكون وجوده لعبة وأنا أريده أن..؟

أبتسم ساخراً: لن أكون مثله يوماً، رغم مواجهتنا المشتركة للتشرد والفجيعة، رغم حصاري وحصاره، يبقى حنظلة متفرداً في وجوده، لن أستطيع اقتناص مثيل له يحتلّ البياض في أوراقي، وينطلق بي إلى العالم عارضاً نزفي بالأسود، يا للحبر اللعين!

أرمي القلم، يشعل الغضب رأسي بأفكار شيطانية، أتناوله ببرود وأكسره، لا، لوجوده قبل وجودي، أمي كانت ترى أنّ اللوحة ناقصة ما دام السلاح غير موجود فيها، أمي غيّبها الانتظار أمام المتوسط، هناك في الرمل الفلسطيني، المخيّمات على امتداد الوطن، ووجودي على امتداد الجرح، شقيقتي رحلت راسمة بدمها خطاً لمستقبل لم تستطع متابعته، كيف اعتقدت أنّها ماتت؟ رصاصةٌ اقتنصتها فاتكأت على كتف الريح فوق رصيف الانتظار، هي أيضاً تنتظر العودة على طريقتها! وأنا لا أريد تعرية عواطفي أمام ندى، هي تراني

---

* الاسم الذي كان يوقّع به ناجي العلي لوحاته.

حلماً، فارساً، فهل أصدمها بأرضية أحاسيسي ورغباتي؟ هل أبرز لها إنساناً من ركام؟!

هناك على عتبات البحر، قريباً من صيدا كنتُ أجلس ساعات مسروقة من الزمن المر لأرى الأفق الغامض حاملاً إليّ روائح النزوح، رائحة لا تغادر جلدي. هل أرمي سلاحي وأستسلم لإرادتها؟

ندى تلحّ في السؤال، وأنا عاجز عن قول الحقيقة، ماذا أقول لها؟ لفظتني دمشق كنواة جافة، أم فررت من ضعفي، أم تراني فررت إليه؟

لا حياد في مشاعري، أنا أدرك ذلك، أدرك قبل كلّ شيء أنّ انتمائي إلى الفقر والتشرد، وانتظاري المزمن للعودة، يطوّح بوجود ندى في حياتي كامرأة مشتهاة، تحضرُ فيخضرّ حقلي بسنابل الشهوة إلى رغيف ساخن.

وأدرك أنّ دمشق ستفتح ذراعي زنزانة لاحتضاني إن عدت، كيف أعود وأنا من هرب منها؟

ها أنا ذا في سيّارة المبيت، أطلع من دمشق إلى (الجديدة). أسلك الدرب الترابي إلى تلة وادي اللوز، أنزل من السيّارة لتزويد الفصيل بالمؤونة، على مفرق المحيدثة تطالعني النوافذ مشرّعة نحو الأفق، دائماً تصيبني بحالة عجز وتنكسر أحلامي البسيطة، وتمضي سيّارة المبيت بي حيث الخيام، تلك الخيام الّتي أصبحت قدري، يقرصني البرد، لسعات تثير حمرة خدي، وشهوتي لدفء أنثى، أرقب الدرب الواصل إلى بيوت القرية المتفرقة، ألمحها مساء على الدرب، تتمشى بين صديقاتها، جوليا كانت آلهة تتحدى وجودي، تنزل من عليائها مختصرة الرغبة بنظرة عجلى، تمضي دون التفاتة. ينقبض قلبي مواريا دقاته، نعاسه، الثلج قادم، هذا ما تنذر به غيوم وادي التيم، الغيوم

تلغي وجود الوادي، أسبح فوقها حالماً بأجنحة تبقيني فوق وتختصر وجعي حاملة إياي إلى عالم مختلف، عالم أثيري لا وجود فيه لأسلحة ولا لطائرات، يهزّني محمود:

ـ لماذا تركت مكانك؟

دائماً أقترف بطولاتي العزلاء على الورق، أوهام تتهجى لغتهم، تضغط البيت (باء)، تنفجر في سمائي بارود (ماذا تفعل بندقية ومخزن بمائتي رصاصة أمام طائرات ثلاث؟).

عاجز عن إطلاق رصاصة نحو مراصدهم أو طائراتهم الّتي تستفز أعصابي؟ لماذا عليّ أن أستمتع بعجزي طاحناً ما تبقى من كرامة ورجولة تحت رحى ضبط النفس والحكمة؟

أفتح النافذة، هل تتشابه النوافذ؟ تلك النوافذ المشرعة في القصر القريب! همس محمود:

ـ أتعرف كلفتها؟

نظرت إليه لا مبالياً، تابع قائلاً:

ـ قال لي فادي إن كلّ نافذة كلّف إطارها الحجري ألف دولار.

هل استطاع محمود إدهاشي أم زاد شعوري بالعجز، تلك النوافذ الّتي تجلب الريح، والنسيم والشمس، هل تختلف إن كانت مبنية على الطريقة الصينية، أو الأمريكية، أو كانت نوافذ خيمة؟ الأطفال الذين بلا نوافذ وأحذية على أرصفة العالم يعرفون معنى الريح الّتي تأتي بلا موعد، فتُقفلُ أقبية الدفء في وجهها، من قال إنّ الشمس واحدة، والريح واحدة؟

بدأ الثلج..

كان جبل الشيخ يقف قبالتي متحدياً ببياضه روحي، ينزف حبري فوق قمته أشكالاً تسيل شلالاً، تتساقط قطراته فوق غيم وادي التيم! تبقى اللوحة ناقصة.

أمي قالت لي: ألست رجلاً؟ أين السلاح في اللوحة، هل ستعود إليها بدالية عنب عجفاء مرسومة بالأخضر؟

كم كنت أشعر بقسوتها، أمي الّتي عبّأت الروح بالسواد، كم كانت...!

يدخل فادي وهو يفرك يديه من البرد:

ـ والدي يدعوكم للغداء عندنا.

كلمات فادي تشكّلت في قلبي على هيئة جوليا، الفتاة الطويلة النحيلة بشعرها السبط الطويل وتنورتها القصيرة، تدعوني لوجبة حب جاهزة. هل حقاً تدعوني جوليا؟ أم أنّي لا أعدو عسكرياً فظاً في نظرها لا يعرف شيئاً عن عالم المرأة وطريقة التعامل مع حسناء مثلها؟

نظرتها كانت تتهمني البارحة وأنا أنزل من سيّارة المبيت وأخطو بقلق نحو خيمتي بعد إجازة قصيرة، أنهكني فيها الطريق الطويل بين اللاذقية ودمشق وبين دمشق والمحيدثة. اتهامها بغلظتي لم يكن يضايقني في البدء، فهي نظرة يحملها الأهالي للعساكر الذين احتلوا خضرة جبالهم وبساطة عيشهم بشعور الحذر ذاك والترقب.

خطوتُ نحو منزلها بقلب يرتعش ويدين باردتين. استقبلتني مع شقيقتها بكرات الثلج، تحمس فادي ضدّ شقيقتيه واقفاً في صفّي.

طوال الغداء كنت أداري حرجي، أمضغ اللقمة على استحياء وأتجنب نظراتها الجريئة.

أصرّ والدها:

ـ ستبقون عندنا حتّى آخر السهرة.

الدفء أرخى أعصابي مع سخونة الشاي المتسربة إلى الكفين، تسللت نظرتها إلى أعصابي، أحدثت انهداماً في بنيتي التحتية، حسب استشعاري كانت دعوتها مفتوحة، حسب معرفتي بالقرية وأهلها أستبعد أن تعجب بي فتاة مثل جوليا، رغم ما أتمتع به من وسامة وجاذبية تتعلق بي النساء لأجلها، لكنّ الأمر بالنسبة لجوليا مختلف. هل يقف الدين عائقاً يمنعها من اقتحام عالمي؟

أحياناً أشعر أنّ هناك أشياء لا علاقة لها بالدين، ربّما الخوف، الحذر، ربّما كوني...!

لا أدري، لكنّ نظرات أهل القرية وامتناع البعض عن حملي في سيّاراتهم حين أصل متأخراً على سيّارة المبيت جعلاني أعتقد أنّ من يحملونني معهم يخشون البزة العسكرية الّتي أرتديها لا أكثر! مع ذلك يبدو أبو فادي مختلفاً، أشعر بود نحوه يبادلني إياه. هل تكفي المشاعر المتبادلة لبناء علاقة ناجحة؟ طوال عمري لم أؤمن بالنوايا الحسنة والمشاعر المتأججة، لأنّها في النهاية تصنع الهزائم. هل ستكون هزيمتي أمام جوليا بحجم ذاك الشعور المشتعل في أطرافي؟

غادرت ليلاً، احتوت الخيمة أحزاني، وقراري السري بالهرب، متى ستكون إجازتي؟

ستفتح بيروت ذراعيها لاستقبال حريتي، و تعطيني فرصة التأسيس للعودة.

أحلم ببيروت، تقتحمني جوليا فجأة، تحاصر أحلامي بالهرب، تشدّني إلى أوتاد الخيمة.

أنزرع في أرضها فزّاع طيور آخر! صيّرتني قبّرة تنقر شبّاك الفرح صباحاً، وتغفو على أغنيات الوجع مساء، صّيرتها سحاباً يلد

أغنيات، تهطل فيروزية النغمات، تشتعل غيوم وادي التيم منادية قمر مشغرة.

يحزنني هذا التحول والاضطراب في مشاعري، أتخذ إليها طريقاً سرياً، تحدّثني عن الغد وأحلامها بالسفر إلى بيروت، تحدثني عن أحلامها بقصر على الطريق، تنفتح نوافذه الأربع والعشرون على أفق وادي التيم، وتنزاح قبابه الحمراء عن رغبة في الشموخ كآلهة فينيقية.

جوليا كانت حقيقة، تعرف ما تريد، تصمم على امتلاك الحلم وتحويله إلى واقع، كانت تتحدث عن طريق واضحة الملامح لا تشبه دربي الملتوي بضيقه المنتهي بعالم الخيام.

هي أرادته أفقاً يشدّها إلى الالتحام بالمجد، مجدها كان في نوافذ مشرعة على دنيا المال والسلطة والقوة، وأنا لا أملك إلا حفنة أحلام بصبية نحيلة قامتها منتصبة في سماء حلمي كرمح.

بذراعين منهكين مقيدين إلى الموت استقبلتني بيروت!

قيّدتني إلى مقبرة جماعية بدون مراسيم، الحلم دائماً تزينه رغباتي، الحقيقة ممهورة بختم وجودهم، لم يطل الوقت في مار الياس، لم يطل الحلم بأمي، فغادرتُ إلى عين الحلوة.

هناك على جدران مخيّم آخر له نفس الملامح الأليفة حاولت تحقيق حلم والدتي برجولتي، هناك اقتحمتني جوليا من جديد. أشقاء الدم زرعوني رصاصة في بيت النار جاهزة للإطلاق، كنت أظن الأمر ببساطة وصولي إلى بيروت يوم الأحد ذاك، في إجازتي التي أخرجت جوليا من حياتي إلى الأبد. لكنّ القلب بقي هناك مرتعشاً عند منحنى البيت الصيني ينتظر ألق عبورها فترة طويلة!

لم تطل إقامتي في بيت النّار، من هناك أخرجتني رسائل تهديدهم مهزوماً!

لم تستطع سحاب أن تصلح الحال بيني وبينهم، أعلنت عجزها دون يأس:

ـ لم يبق أمامك إلا المغادرة، حقق وجودك في مكان آخر.

أهرب من دمشق! تضطرني بيروت للهرب، إلى أين تقودني قدماي من جديد؟

الحيرة تأكل عشب دماغي، تختلط الأوراق، أبو الزعيم يشكّل خارطة وطن منهوب يدعمه باغتصاب وقتل واختطاف مناضلين، لأجل أيّة قضية؟ سحاب تصرّ:

ـ لا دولة مع هذا التمزق الذي نعيشه، هم يقولون بمدّ الجسور مع اليسار الإسرائيلي، وأنا أحاول عبور الجسر الوحيد المعمد بالوهم والقذائف، والقنابل الفراغية!

كحلم يمرق في ذاكرتي أهمس بشرود:

ـ تذكرين عبد الهادي شحادة؟ صديق الطفولة المشردة! صديق الأزقة الموحلة في الرمل الفلسطيني، ومتاهة أسواق دمشق القديمة، والدراسة، والسجن!

تنتفض فزعة وكأنّ شبحاً طلع إليها من العتمة:

ـ وكيف لا؟

ـ كنّا في زنزانة واحدة، تحاصرنا قضبان الشوق لحريّة تنفتح على الجرح فتكويه بالنّار، عشقه ليارا أفقده صوابه، كان يعتبرها وطناً، لا أدري أيّ جنون عشقي دفع به إلى التطرف فالسجن، هل نحن شعب مغفل لا يعرف موضع قدميه؟ كان دائماً يفاجئني بسؤاله في لحظات حصار الصمت لأصابعنا! ويردف مرتعشاً (بعد قليل نشرب نخب رصيف جديد، تخلّف عن مسائنا / لأنّه لا يملك جواز سفر). لا أدري

ما الذي يجعله ـ مع امتلاكه وطناً ـ يركض وراء أحلام مستحيلة بين جدران المعتقلات؟

تخفض رأسها مدارية ألماً ومض للحظة فأرعش يدها، ترى أيّ عشق جنوني يدفع المرء إلى التطرف والسجن وحمل السلاح، لماذا ذكرتُ لها عبد الهادي؟ أيّ قدرة على القتل أمتلك؟ ألم أرَ كيف أرعدت سماؤها وتبللت الهضاب بحبات المطر؟ سحاب الرقيقة كفجر، العنيفة كعاصفة، تنكسر نظراتها أمام ذكراه، تعرف أنّه كتب يارا زهرة مدارية يلوّح لها المتوسط بقبعته، فتنبعث فوق الزبد آلهة للجمال، أذكر تلك السهرة الأخيرة تحت القصف، صوته يتسرب خشناً دافئاً يغني ليارا (يارا الجداليها شقر). أذكر ابتسامتها الأخيرة، وهرب سحاب معلنة يأسها وعجزها عن احتمال حبّه لصديقتها، صديقتها الّتي بقيت متسلحة بابتسامتها ودمها ينزف على صدره، كلانا ترك دمشق هرباً إلى أفق رحب في بيروت اعتقل نبضنا، هو فرّ من وطنه عاشقاً يارا مضحياً بحريته لأجلها، وأنا غادرت وطنه لأصل إلى وطني عن طريق بيروت، أضحكني اللقاء المتوقع في السجن، وأحزنني ضياعه مني حين نلنا الحرية! أعرف أنّه نورس متسكع على أرصفة القارات، يصرخ بالأزرق فتجيئه السواحل فرحة باللقاء، وتحتويه الجزر النائية لحظة عريها، وتلفظه عند الصباح فيعود للأرصفة النازحة تحت قدميه إلى لا مكان! يلتحف نبضه ويغادر دمه إلى مدن القتل بجواز سفر مزيف! كلّهم، كلّ أولئك الذين مروا في حياتي اختاروا موتهم ووعوه مبكرين فاستعدوا للحظة الالتحام بفضائه، وأنا؟ تصعقني سحاب بقوة تماسكها:

ـ منذ أغنيتين أعلن وطنه مطراً، وأعاد ترتيب دمه لانتفاضة شتائية جائعة، كان طائراً لا يحتمل الأقفاص، أحقّاً لا تعرف ما الذي

جذبه إلى المعتقلات؟ كثيرون تركوا أوطانهم واعتنقوا طريقك المفروشة بالأسلاك الشائكة، لأنّهم آمنوا أنّها الطريق الوحيدة للعودة.

يتبعثر سؤالي (وأنا؟).. تتطاير آخر أمنياتي بامتلاك قدري!

2

التوت الأعناق تراقب خطواتي وأنا في طريقي إلى طاولتي، رميت أوراقي وجلست على الكرسي العتيق المنخفض قليلاً، ورحت أتابع العيون الغامزة والشفاه الهامسة، بادرتني هند بهجوم واضح:

ـ مبروك العريس، لقد أصبحتِ من أصحاب الثروات، ولن تنظري بعدها إلى المتشردين أمثالنا.

أصابتني الدهشة، وتساءلت متجاهلة أسلوبها الساخر عن أي عريس تتحدث! نسيت أنّي وسط صحفيين يترصدون الأخبار، فكيف بزميلتهم! لقد أعلنوا خطبتي رسمياً، وتحدّثوا بجفاء عن غيظهم لأنّي لم أدعُ أحداً للحفل! كانت هند تتحدث متدفقة بأخبار لا صحة لها، رافضة أن تنتبه إلى احتجاجي، التفتت إلى زميل لنا تكمل حديثاً بدأته قبل دخولي، تشرح فيه أنّ سبب تركي لمدحت كان رغبتي بعريس ثري ينقذني من الشحططة في المواصلات والركض والإرهاق في الوظيفة، ويحقق لي الأحلام الوردية بسلطته المالية! كانت السكاكين الصدئة تقطّع جسدي ببطء تنزف معه أحزاني وتشتتي، كيف ومتى كنتُ تلك التي يتحدّثون عنها؟ حتّى النقمة على هند لم تستطع أن تملك قلبي، كنت أضعف من الحقد والمقاومة ولساني تيبس في حلقي،

هذه الأحاديث خيانتي الكبرى لك، كيف أصبحتُ بهذه السهولة مادة لأحاديث مغرضة وأخرى ساخرة، وأخرى مشفقة وأغلبها تختبر براعتها في التحليل والنقد!

اغتالني الزملاء بألسنتهم الحادّة وتعليقاتهم وتفسيراتهم، وقبل أن أحكم على نفسي بالسجن، حُكم عليّ بالإعدام!

واحد فقط انسحب من الغرفة دون تعليق، مدحت الذي عرض عليّ مشاركته راتبه المحدود في حياة بسيطة لكنّها محسوبة بالقلم والورق، مدحت الذي صددته مرّة لأنّي كنت أعيش صدمة الحبّ الأوّل، كنت مقتنعة أنّ الحب فعلاً للحبيب الأوّل، وأنّي سأعيش عمري منكفئة على ذكراه، أجترّ آلامه، ومآسيه رافضة دخول أيّ رجل آخر في حياتي وقتها، غصت بين ثنيات الكتب، وأسرني الشعر ووجدت عالمي في الكلمة، وأغلقت القلب عمّا عدا ذلك، لكن! ما حدث في بيروت، قلب الموازين، وأيقظ أحلامي بشاب سيخطفني بعيداً، أعيش معه منعزلين عن الدنيا، كنت أحلم بشرفة يظللها الياسمين، وأطفال كالملائكة بلا متاعب، ورجل لا أسمع إلا صدى همساته، يصحو على قهوتي الساخنة، وينام على ابتسامتي، فأيُّ حمقاء أنا؟ مدحت على حق، القلم والورق ليس للشعر فقط، بل هو للحساب أيضاً، المواصلات والكهرباء وأجرة البيت، والأولاد، و.... و... وأوقفت اسطوانته رافضة قتل الحب بمطرقة الحسابات المقيتة، أين البحر والياسمين، والقهوة، وفيروز، والليل والقمر! يا لحمقي، كلّها انتحرت على يدي (فضل)، وجاء مدحت ليفتح عينيّ على حياة أخرى، كنت أرفض التفكير فيها رغم أنّي أعيش تفاصيلها يومياً عند أوّل كلّ شهر، لم ييئس مدحت، عاد منذ شهور ليحدّثني في الموضوع نفسه، لكنّ حاجزاً آخر أشدّ وأصلب كان بيني وبينه، فقد أعلن حبك

عليّ حظر التفكير في ما عداه، وانسحب مدحت بهدوء مصحوباً بنقمة تطلّ من ابتسامته المختصرة مع تحيته الصباحية في مدخل مبنى الجريدة، رافعاً يده بالتحية ظهراً ضاناً بكلمة مع السلامة! وفاجأني بخطبته لأخرى، أكان يحبني حقّاً؟ أم أنّي مجرد فتاة تناسب أحلامه؟ أراه الآن بوضوح، إنسان متوازن ومنسجم مع ظروفه ونفسه، ولكنّه لا يناسب فتاة حمقاء وجبانة مثلي، تعيش في الظلّ وتنتظر من الآخرين أن يشكّلوا حياتها كما يريدون، هل سأوافق؟ هل أنا مقتنعة حقّاً؟ لا، لن يتدخل أحد في قراري، ولا حتّى عواطفي.

عرقٌ بارد تغلغل بين أصابعي، تركت القلم على الطاولة، تفحصت ما كتبته، لم يكن هذا ما أردت كتابته، ما الذي جرى لي؟ رأسي يؤلمني، الصداع يطرقه بعنف، التعليقات، التهنئات، المقال الذي بين يدي، أمي المريضة، عينا رشا العاتبتين، وشاطئ بعيد وبارد يناديني، وأنا نقطة حبر صغيرة لم تتشكّل حروفاً جميلة ولا قاسية، بل سالت على أرضٍ متسخة وداستها أحذية لا مبالية..

فاجأني جوّ البيت الهادئ الهامس كأنّ طيراً حطّ على رؤوس أسرتي بأكملها، كان واضحاً أنّهم جميعاً يترقبون عودتي من العمل وفي فمهم تغصّ كلمات تخرج على استحياء، كانت رشا أوضحهم، شدّتني من يدي لتخبرني أنّ عريس الغفلة ينتظر رؤيتي! قالتها بأسىٍ من ينتظر مأتماً! حلّق تفكيري بعيداً عني، أين أنت الآن؟ هل حقّاً ستوافق على الارتباط بي؟ قررت بلامبالاة:

ـ سأراه.

أسكتت الفرحة رشا، فركضت لتخبر أمي وأبي وتزف إليهما البشرى بموافقتي المبدئية. دخلتُ الصالة أحمل القهوة وأتعثر بالعيون المتعلقة بي، حاولت الضغط على نفسي لأتخلص من الخجل المقيت

الذي احتلني، لكنّي فشلت، اكتسى وجهي بالحمرة، وذبت من الغيظ والقهر، ولشدّة حرجي لم أستطع أن أرى من العريس سوى حذاء أسود أنيق لامع، ويداً سمراء مكتنزة امتدت لتأخذ فنجان القهوة مني، استدرت بسرعة وخرجت. انكفأتُ على سريري أبكي من شدّة الجبن والضعف اللذين هزماني أمام عيون أهلي والرجل الذي ينتظرون أن أرتبط به بقية حياتي، جاءت أمي مترددة:

ـ ماذا قلت يا ابنتي؟

أبديت موافقتي على الخطبة المبدئية.

غسلت الدموع وجنتي أمي، لم أستطع فهم تلك الدموع، أكانت شكراً لي أم عتباً على الزمن الذي أحرجها بطلبها ذاك؟ غادرت دون تعليق، ما أقلقني أنّي اكتشفت فجأة بعد إغلاقها الباب، أنّ هناك فتاة أخرى انسلت من جسدي خارجة معها، تاركة إياي أعاني الحيرة والاستغراب مما أقدمت عليه، هل حقّاً أنا الّتي قلت تلك الكلمات؟ امتصتني دوامةٌ من الأفكار الصعبة حتّى الإغماء، وشخصت عيناي إلى الجدار، فلم أر سوى وجه قاتم ينزف صديداً وألماً، لم يكن ذلك الوجه غريباً، كان انعكاساً لمشاعري وملامحي المشوّهة، مختلطاً بملامحك الترابية المحببة، شخصت عيناي إليك في حالة ذهول، استحضرتك روحي، رأيتك تنسلخ من الجدار وتجلس بقربي على السرير، حوارنا امتدّ ساعات طويلة، كانت يدك تجوس غابات شعري بلمسات حانية ودموعي تغسل غابات صدرك الدافئة، حوار أخذني من دنياي فلم أشعر بأمي وهي تدخل الغرفة، لتخبرني أنّ العريس مستعجل، ويريد إنهاء كلّ شيء بعد عودته!

أخرسني حنانها، تعثرت الكلمات في حنجرتي، وخرجت موافقتي رغماً عني، لم أستطع منعها رغم أنّي حاولت! غصصتُ بالكلمات،

كيف أسير إلى المقصلة بإرادتي؟ يضعون قدميّ في النّار ويقولون: لا تحترقي.

آه منك، ومن قدري الذي رماك في النبض، والشهيق، ومسامات الجلد، لكن لِمَ لمْ أرفض؟ أيؤكد هذا الأقاويل التي يتناقلها الزملاء عني؟ هل صحيح أنّي بعت نفسي بدراهم قليلة؟ أم أنّي - كما قال مدحت - أعاني انفصاماً في شخصيتي!؟ هل رفضك الارتباط بي يعطيني العذر فيما أقدمت عليه؟ كيف أتخذ قراري بمفردي؟ هل أخبرك؟ لا حلّ وسطاً، إما الزواج أو قبول علاقتنا كما هي، على الأصح كما تريدها أنت، وأنت تريدني أن أبقى معلقة ما بين السماء والأرض، من غيرك يستطيع أن ينتشلني من حيرتي ويساعدني على اتخاذ القرار دون تردد، لكن كيف أستطيع الوصول إليك؟ هل أكتب لك؟ لا، ليس ذلك مجدٍ، هل أسافر إليك، لا بدّ أن أراك.

تسرب اطمئنان حضورك إلى قلبي، وغفوت.

3

هذه المرّة شعرت أنّ جوّ بيروت الكئيب يلفظني رافضاً استقبالي، اكفهرت الأمواج وهي تنثر رذاذها المالح في وجهي، منبئة بعاصفة قادمة!

غاصت أناملك الرقيقة في لحم كفي، وانتزعت أنّة موجعة من بقايا أعصابي، تطلعتَ في وجهي بحنان مفاجئ، فأشعلت الجمرة المدفونة تحت الرماد في أعماقي، هل قررتِ؟ تنهدتُ بحرقة، اقتلعتَ

أجنحتي وقلت لي طيري. لن أحتاجك، أنا لا أريدك، أتحفز لأنشب أظافري في عينيك، سأقتل شخصاً ما، ليكن أنت.

ـ أأنت مقتنعة بما تقولين؟ حاولي ألاّ تفسري كلامي على أنّه سخرية، أحبّ أن أقول لك إنّ تسميتك للفعل قبل القيام به يعني ببساطة أنّك لا تملكين الجرأة للقيام به، فالأسماء توجد بعد المسميات.

أنا لستُ نهاية العالم، وأنت ما تزالين قادرة على تجاوز شعورك بالضعف، وخلق شيء جديد، أنا لا أريد لك هذا الشعور وأظنّك لا تريدينه لنفسك، فلماذا تقتلين ما هو جميل فيك؟ ولماذا تريدين للآخرين بعد ذلك أن يتوهموا أنّك قوية؟

ضحكتُ بمرارة:

ـ أنا قوية بضعفي، أم نسيتَ نظرياتك السابقة عن الأنثى الّتي تتفجر بما فيها فتسوس بضعفها مراكز القوى؟ طوال عمري كنت أرفض فكرة الزواج، أنت تعرف كم يستهويني السفر، وكم أحبّ حريتي، رغبة وحيدة تسيطر عليّ الآن أن أكون معك.

أشعلتَ سيجارة، نفثت دخانها نحو السماء، تطلعتَ إليّ في شك:

ـ تتنازلين عن حريتك لأجلي؟

ازداد توتري:

ـ أيّة حرية؟ أنت حريتي؟

ابتسمتَ ابتسامة غامضة تحمل أكثر من معنىً:

ـ تشعرين! الشعور شيء، والفعل شيء آخر.

عدتُ إلى لعبة شدّ الحبل بكلّ قوتي:

ـ لِمَ لا نستطيع الارتباط مع محافظة كلّ منا على حريته الشخصية، أفكر بمحطة دافئة تجمعنا كلّ مساء.

بقيت نظراتك بعيداً عني، تجوس في عالم غريب مختلف، ونطقت شفتاك بحياد:

ـ لا زلتِ غارقة في أحلام رومانسية لا علاقة لها بالواقع.

لم أكن أطالبك بالمستحيل، لكنّ البيت والمسؤولية، والروتين، والاحتياجات اليومية، وأشياء صغيرة لم أفكر بها، كانت حقل الألغام الذي واجهتني به، الزواج علاقة اقتصادية بحتة! أين أقف من كلّ هذا؟ أين أفر من حصارك الملعون، وعيناك تخترقان القلب فألتصق بعجزي؟

دائماً تحاول أن تجعلني أبدو طفلة غبية قليلة التجارب، وتضعني في موقع الدفاع عن النفس. لم يكن موقفي تجاهلاً لالتزاماتك الشخصية وإن فهمتَ ذلك، مع ذلك بدت محاولاتي للدفاع عن حقي بك، هشة وتافهة. رميتني بنظرة باردة:

ـ أرى وكأنّنا أصبحنا على طرفي نقيض، أنت بعيدة عني تماماً، بدأتِ بالهجوم لأنّك تفتقرين للمنطق الهادئ، لا تغضبي، على الأقل عرفتُ كيف تنظرين إلى علاقتنا، أنت تريدين حريتي، حسناً، اتخذي قراراً بقتلي، فثمّة من يريد قتلي، ثمّة من هو أقوى منك ومني يطلب دمي، وقبل دمي حريتي.

أعرف هذا، نغمتك الشرسة هذه دائماً تدمي حلقي، وتمنعني من الرد، تعزفها باستمرار لتسكتني. غامت عيناك بظلٍ قاتم وكأنّهما تكشفان غيباً مشحوناً بالكوارث والمفاجآت المميتة:

ـ معك حق، الأفضل أن ننفصل قبل أن تتطور خلافاتنا إلى تجريح بعضنا، لكن لا تنسي أنّك الّتي اخترتِ وقررتِ، وأنّني لم أتخلَ عن حبك، لكنّك تركتني أواجه مصيري وحيداً، ها أنا أواجه عدواً

بوجهين أحدهما أراه بوضوح أمامي والآخر يتسلل من داخلي إلى الخلف، وأرجو ألا يطعنني في ظهري.

بل أنت الذي يوجه الطعنات إلى قلبي، وها أنت ذا تتفرج على لحظات موتي وتدخن بشراهة، ماذا أقول لك بعد محاولاتي الفاشلة لاسترادادك؟ بماذا أردُّ على كلماتك الجارحة المليئة بالقسوة والحياد؟ دموعي هي الرد الوحيد الذي استطعته، والذي فجّر حنانك نهراً بارداً غسل الحمم التي خلّفتها براكينك في داخلي، كلمات الأسف لفحت وجهي بحرارتها، لكنّها لم تمد جسراً للتفاهم!

وكأنّي أواجه خصماً لا أعرف وجهه، يكمن لي في العتمة ويده على الزناد، لم أعد قادرة على الجلوس وإياك على مائدة ملغومة قابلة للانفجار في أيّة لحظة، لا، لا أستطيع.

ـ حسناً ندى، كُفي عن البكاء.

ورقَّ صوتك فجأة:

ـ هيا لنذهب، أرجوكِ، لم أعد أحتمل منظرك الطفولي، هذا يكفي، هيا سأدعوك إلى الغداء مصحوباً بالشاي، اضحكي، وجهك الكئيب يشعرني بالإحباط.

ـ والوضع الاقتصادي؟

دون أن تنبس بحرف، مددتَ يدك لتحيط كتفي ونحن نعبر باب المقهى، لكنّي عرفت أيّ سكين غمستها كلماتي في جراحك النازفة بعد فوات الأوان!

كعادتنا عبرنا الشارع ملتصقين، دموعي تغسلني، وضحكاتك تزيد إحساسي بالقهر والهزيمة.

عندما شعرت بالدفء يتسرب من الأغطية الصوفية وكأس الشاي الذي صنعته لي بنفسك، ارتخت عضلات وجهي قليلاً، ورحلت

غيمات الحزن من عينيّ، حاولت أن أبدأ معك حواراً مختلفاً، كنت أريد حنانك وبعضاً من الدفء، جلستَ بقربي مطرقاً، وحدست أنّك تريد إكمال ما بدأناه، أردت الهرب من الحديث لأستجمع قوتي، وأحشد أفكاري تأهباً لمواجهة جديدة، مددت يدي إليك، ضغطت على أصابعك، واشتعلت النّار في أطرافي، لكنّك بقيت جامداً، بارداً، بعيداً عن حممي، رفعتَ رأسك ببطء، نظرتَ إليَّ وتابعت حديثك:

ـ هل أنا بحاجة لتذكيرك أنّي لا أمتلك مصيري؟

ووجدت فرجة من الأمل:

ـ من منا يملك مصيره؟ لماذا تحاول قلب الأمور وجرّي وراءك في متاهة كلماتٍ لا معنى لها؟ قل باختصار إنّك لا تريدني.

همستَ:

ـ بل أحبك و أريدك.

أخرستني كلمتك، فهل سأبدأ العد العكسي؟ هل سأدخل سراديب الصمت والذهول، وأفتح لك نوافذ الكلمات الحلوة؟ الشك مهرني بحبره الأسود وجرّني على صفحاتك البيضاء شكلاً مشوّهاً لتناقضاتي:

ـ لو كنتَ صادقاً!

كأنّما لسعتك أفعى سامة، ابتعدت عني، حدّقت بوجهي مستنكراً:

ـ هل الزواج هو الذي سيثبت لك صدقي؟ أنت لا تعرفين ما تريدين، لكنّي مستعد لتنفيذه الآن، وستتيقنين بعد اعتزالك للعالم معي أنّ هذه اللعبة الصغيرة ستنتهي، وننتهي معها بعد مرورنا بهذا العالم بأتفه الأشكال، هل ستضعفين بدوني؟

تشجعتُ قليلاً:

ـ أنا لا أسمي الارتباط بغيرك ضعفاً، بالعكس هو حل مثالي لاضطراباتي النفسية، ولمشاكل أهلي المادية.

قلتَ بحنق:

ـ هذه صفقة.

كنت أعرف أنّها كذلك، كنت أدرك أنّي تفوهت بعكس قناعاتي لكنّي مضيت في عنادي، لمحت على شفتيك ابتسامة هازئة:

ـ تعرفين أنّ كلّ ما تفوهتِ به هراء، فهل أستطيع القول إنّه ابتزاز لعواطفي؟

تشنجت حنجرتي بقسوة، وكدت أصرخ بك، أن اصمت، لكنَّ دموعي سبقتني، أحطت كتفي بذراعك ورفعتَ وجهي المبلل بالأسى:

ـ ندى، يكفي، لا تردي عليّ بالدموع، ما رأيك لو نتمشى قليلاً على الشاطئ؟

ـ لماذا؟ أتخاف الانفراد بي؟

أكدّتَ رغبتك في تغيير جو الغرفة علّ هواء البحر يعيد إليّ التوازن. لم أتحرك من مكاني، فاقترحت أن نخرج للبحث عن فندق أقضي فيه ليلتي! حدّقت فيك:

ـ وممَّ تشكو غرفتك هذه؟

أجبت مقطباً:

ـ من الوحدة، أخشى عليك منها.

ظلّ ابتسامة كئيبة أطلّ على شفتيك، أشعلت شمعة، على ظلالها المتراقصة لمحت تعبير وجهك وأنت تحاول المحافظة على الحياد وبعض القسوة.

أمامي بخطوات واسعة قطعتَ الطريق، حاولتُ أن أجرّك إلى أيّ حديث، لكنّك بقيت صامتاً وكأنّك تعاقبني على اقتحامي عالمك بهذا الوضوح والجرأة.

أسلمتني لليلة لا ضياء فيها، البرد، الوحدة، والعتمة، أسلمتني لأقبية رطبة تفوح منها روائح البن ممزوجة بدم طازج يسيل على جدران الممرات المظلمة، القصف يزداد من البحر والبر، أركض في (الحمراء)، أصعد أدراجاً، تلاحقني القذائف، تهتز البناية فوق رأسي، يطلّ الفزع من وجوه لا أعرفها تقاسمني الممر الضيق، توقف القصف للحظات. اقتربت يد تحاول خنقي، ضغطت على عنقي بشراسة، تلاحقت أنفاسي مع صوت صفارات إنذار قريبة.

فجأة أفتح عينيّ لأخرج من ركام الحلم.

الغرفة مضاءة بالكهرباء، صوت صفارة إنذار يعوي بنغمة جنائزية قريباً من رأسي، أهرع إلى الممر، موظف الاستقبال يبتسم لهيئتي المشعثة:

ـ إنّه كوكو.

عدت أجرّ فزعي وألملم خجلي، لم يكن ينقصني سوى ببغاء الفندق الذكي يمازحني في وحدتي وسط هذا القلق من شيء مجهول.

أستلقي على السرير، الغرفة تضيء ببياض مفزع، أين البقع البنية؟ أين مكان القذيفة؟

لماذا يقودني حظي التعس للإقامة في الغرفة 617 الّتي دمرتها قذيفة أثناء الاجتياح؟

كوكو طرق أذني ثانية بمزاحه السمج حين صفر لحن (هكذا طرق القدر بابي) لبيتهوفن.

المدعو كوكو كان بارعاً في عزف اللحن حتّى تسارعت دقات قلبي معتقدة أنّ بيتهوفن يقيم احتفالاً جنائزياً لأشباح قتلى طلعت من كوابيسي، دخلتْ توابيتها بهدوء، واستقرّتْ في موكب مهيب أمام الفندق.

كوكو غيّر النغمة إلى صوت قذيفة جعلتني أتعثر بساقي في محاولة ثانية للفرار من غرفتي

هل كان كوكو من آلهة الحرب؟

4

كانت نسمات الصباح الباردة تتغلغل في جلدي باعثة فيّ الانتعاش، وخطواتي تختار البقع المشرقة على الرصيف لتعانقها بحثاً عن بعض الدفء المتسلل من الشمس المختبئة بين الغيوم. بدأت رائحة الملوحة تنفذ إلى أنفي، وتراءى البحر بأمواجه المختالة فرحاً، مددت ذراعيّ وأسرعت الخطى، وبسرعة تجاوزت كلّ ما دار بيننا، وجلسنا ملتحمين على صخرة قبالة البحر، تنشقت نسماته بعمق، فتحت رئتي وهمستُ:

ـ أحبك.

ابتسمت:

ـ ولكنّك ستتركينني، ندى، أحقّاً ستتزوجين؟ أم هي مناورة صغيرة ستنتهي بعد لحظات؟

آلمني تساؤلك:

ـ لا زلتَ غير مصدق؟

أكدّت بحرقة:

ـ لا أريد أن أصدق، أشعر أنّك ستقولين لي، كنت أمزح معك، وسأقبل أن تكون كذبة، لكنّي لن أستطيع قبولها كحقيقة.

كنت أحاول مصالحة نفسي، أستعين بالبحر كي أعدّل قراري بشكل لا أظلمك فيه، لكنّك مصرٌ على طعني، وأنت لا تعرف اختيار الوقت المناسب للطعنة، عندما قلت لي: أحبك، كانت كلمتك زقزقة نورس يحتضر ملتحماً بموجه، ورائحة ربيع تشرّب نكهة البارود والدم. عندما خيّرتني بينك وبين وجودي، تركت شفتي تنزف على حد سكينك المسمومة. أتفجر بحروف صعبة وآلام مدمرة، بعيداً عن استيعابي لوضعك، احترق ببطء، وأنتهي، هل كنتَ كابوساً؟ أم طوق نجاة؟ هل حقاً تربتك لا تناسب جذوري؟ وهل سأنبت شوكة قاسية في أرض أخرى؟

كانت التساؤلات الكثيرة تمنعني من النوم الليلةَ الماضية، أتقلّب يميناً وشمالاً فلا أجد حولي سوى علامات استفهام وقلبي مستنفر بكلّ قوته على الخفقان! أدرتَ لي وجهاً مليئاً بالعتاب:

ـ أحبك، ألن تعودي؟

اهتزّ جسدي، وأنفاسك تلفح وجهي حارّة كرغيف خرج لتوه من فوهة التنور، عيناك تغوصان في جسدي، فأنشج... كأنّك تتقاذفني ككرة، أحبك، لا أستطيع الارتباط بك، بل أحبك، أحبكِ ألن تعودي؟ أرفع إليك عينين مخضلتين بالدمع، ولساني لا يحيد عن قراره:

ـ لا، لن أعود، أحببتك دائماً، ولكن! انتهى...

تصرّ بانفعال:

ـ أرجوك تطلعي إليَّ، لم ينته شيء، اعطيني فرصة، لن يطول بعدي عنك، بعدها سنقرر معاً مصير علاقتنا، أجّلي سفرك، ابقي معي.

ـ فات الأوان، لا أستطيع البقاء.

لمعت عيناك بشيء مبهم، تحركت شفتاك ببطء، بصمت وضعت يدك الدافئة حول كتفي الباردة، بصمت سرنا معاً، بصمت أيضاً احتضنني مقعد السيّارة الخلفي، وكأنّ مطراً هما على وجنتيك في غفلة مني، ولعلّني توهمت ذلك!

عيناك الغائمتان بالدمع اعتصرتا قلبي، وهناك في القاع منه، سقط طير ذبيح ينتفض في بركة دماء، حملتُ ذكرياتي المعبّأة في جلدي ورحلت.

5

تلوح لي ظلال قرية نائمة من بعيد، وتدفن الشمس رأسها في حضن المغيب.

السيّارات تمرّ مسرعة، القرى صامتة، وقلبي يذوي شيئاً فشيئاً، يكبر الحلم ويتضخم وأدخل دنيا النوم. أعاصيرُ تقتلعني، مدنٌ غريبة تتلقفني، صراخ وعويل، ورأسي يرتطم بالمقعد الأمامي. أصحو من نومي، تلوح أنوارٌ في البعيد، لقد وصلنا! غير معقول، هل قضيت الطريق نائمة؟ يا إلهي ما مقدار التعب الذي سيطر على جسدي حتّى نمت بهذا العمق!؟

كنت دائماً أخاف النوم في السيّارة مهما كانت حاجتي ملحة، قلبي يخفق عند كلّ منعطف، وعند أيّ توقف مفاجئ!

أخذت تاكسي، فتحتُ النوافذ، صفعني هواء بارد مغبر، لمحتُ الضوء في غرفتي مضاءً لا بدّ أنّها رشا في انتظاري، صعدت الدرجات الخشبية بفتور، فتحتُ الباب بهدوء، صرختْ شقيقتي:

ـ الحمد لله على سلامتك، قلقت عليك.

أسكتها:

ـ النوم ما أريده في هذه اللحظة، أشعر بتعبٍ رهيب، غداً نتحدث.

كانت نظراتها تحمل أكثر من تساؤل، أهو اتهام؟ أم رجاء!؟ وعلى حساب من يكون الفرح؟ أنت الذي أغلق نوافذ الفرح وطلب مني أن أغرق في الضحك على طرفة علاقتنا، والآن كيف سأرفض صفقة رابحة؟ بأيّ عذر؟ كيف أرمي بمهر خيالي في حاوية القمامة؟ وأرمي معه أحلام أسرة بأكملها؟ أمي المريضة التي يسكن الربو صدرها وينهك السكّر جسدها، أبي الموظف البسيط الذي لم يمسك مبلغاً في يده طوال حياته يتعدى راتبه! شقيقاتي، المستقبل! ينغرز قراري سكيناً في أحشائي، يدميني، أنا الأضحية لعيد الآخرين، أعضُّ على شفتي من طفولة مجروحة الكبرياء. يطلُّ وجه فضل يغني لي (بكرة العيد) دائما الشقراء تذبح أضحية العيد، وكنت أبكي بدموع سخية يمسحها ضاحكاً:

ـ أنا أمزح معكِ، الأضحية لا بدّ أن تكون خروفاً.

ما الذي اختلف الآن؟ طوال عمري أشعر بالسكين قريبة من عنقي، آن أوان الذبح، لأترك عنقي مستسلماً راضياً. أنت تعتقد أنّ فكرة العريس مجرد مسرحية أبتز بها عواطفك! لا داعي للبكاء على أطلالك. فلأخلعْ السواد من قلبي ولأفتحْ نوافذه على الربيع القادم!

ارتحت للقرار البسيط، مسحت دموعي، غيّرت ملابسي وارتميت على السرير، فتحت الراديو الصغير القابع على الطاولة بقربي، بحثت في المحطات عن أغنية أغفو على أنغامها، استوقفني صوتك العاتب مختنقاً بعذاباتي، كواني حتّى العظم، وبكى القلب، بكى حتّى سرقه النوم من صحوه.

توهج الجمر

1

سيّدة الندى ..

سيّدة الصمت الموحش..

ربّما اتخذتِ قرارك، هذا ما قاله صمتك وغيابك. إذاً لنفترقْ ونحن أصدقاء.

لن ألومك ندى، وإن شعرت بغصّة بعدك تكويني. لن ألومك، بل ألوم نفسي لتورطها في حب أعرف مسبقاً أنّه سيذوب كالملح في محيطات البعد والقمع. قد لا ترين ارتباطاً بين الاثنين لكنهما عزيزتي شكّلا حياتي على هيئة ماء، تشربه الأرض، ويتصارع عليه البشر!.

منذ بكى أمل دنقل في حزيران 67 بين يدي زرقاء اليمامة، وأنا أحبس الدمع خلف سدود عنادي كي أفجّره لحظة لقائي بها.

دائماً كنت ترين وجه امرأة يفصل بين روحينا، لكنّك لم تجربي مرّة التحديق في ملامحها لتعرفي من تكون!

كنتِ تصرين علي أنّي أكره الشعر وأعبد السلاح. لو أنّك تعلمين ندى... لم أكن يوماً أميل إلى العنف، ولا زلت أرتعش لذكرى القتل، ولا أتصوّر أنّ يدي كانت تضغط على الزناد لتنهي حياة إنسان في ثانية!

أعتقد أنّك ستفهمين، وتقدرين. أتمنى لك السعادة . لا أظنّ أنّنا سنلتقي بعد الآن، وإن لم أيأس من العمر بعد، لكن طريقي إلى بيروت بات مسدوداً بما لا يمكن الإفصاح عنه!

سيّدة الصمت الأبدي..

سامحيني، أشعر أنّه يجب أن تسامحيني، لا أعرف لِمَ، ما أعرفه أنّ بياض قلبك سيمطر دائماً ياسميناً دمشقياً في روحي، وسيلازمني في حلي وترحالي.

قبلاتي لروحك الطاهرة دائماً .

المخلص / خالد .

ترنحت الرسالة ، واستقبلت الأرض. شيء ما يحتضر في روحي وجسدي.

لم يكن الصمت وحده وشمي، كان هناك وشم آخر تنفر له العروق فيظهر في باطن كفي مريعاً، ينزف وجهك، ينزف لحنك صوراً مفزعة تطلع من بياض الورق إلى سواد الواقع، فأتلاشى.

لا أدري كم من الشوارع لفظتني حتّى وجدت نفسي في سوق الحميدية. في المنحنى المؤدي إلى قلعة دمشق اصطدمت نظراتي بمدحت بشكل مفاجئ، كانت يده تضم يدها بقوة وهما يعبران الشارع، تسمّرت خطواتي، تبسم شيء في داخلي وارتعش آخر، أين رأيت هذا الوجه الهادئ وهذه الابتسامة العريضة وهذه الـ...؟ آه، ضربتُ جبهتي إنّها هي، لا شك، هدى. تهاوى زمن، انتحرت

حرائق، واشتعلت السماء برصاص قناصة على سطوح بعيدة، تشابكت أسلاك الكهرباء واندلقت أحشاء عمود خشبي على الرصيف، هاهي تبرز مرّة أخرى في نهار دمشقي بارد، لا لتزورني كما اتفقنا، بل لتسكن بيتاً كان من الممكن أن أكون سيّدته! هاهي هدى علي بعد أمتار ، تحتضن اليد الّتي اشتاقت لاقتناص أصابعي مراراً دون جدوى. هاهي، رمت بيروت وراءها، وها أنا أسعى إلى ما رمته، كم هو محظوظ بها!

2

لم أكن بحاجة للتأكد من صحة اعتقادي، الدوار الذي ألمّ بي كان كافياً لانتزاع الأمان الذي تشبثت به كحل لأزماتي كلّها. أطاح بسهولة بقراري العنيد بخلعك عن عرش القلب، لماذا تصرّ على قتلي بمختلف الطرق ؟ لماذا قررت اغتيال خلايا الجلد بدفع دمك في أوردتي ؟ كيف أتخلّص من تورطي بحبك من جديد؟ كيف أتخلّص من حصارك لشهيقي وزفيري ؟

تنفجر إصبع ديناميت قاتل في ليلي الكئيب، تمتطي الحلم وتمضي، تمخر عباب روحي، تستنفر الأنثى النائمة، تنزع عنها ثوب الكسل، فتنهض عشتار من جديد، يسقط برقع البرد بين قدميّ محدثاً ضجيجاً في الروح ، وتثلج أصابعي ياسميناً ..

يتسرب صوتك مسكراً من نافذة الذاكرة (اتركي يدي تذهب أينما تشاء، دعي صوتك على عفويته ، يتلون بالرغبة والأنين والانطفاء.) تشدّني مشاعري، أحدّق بعيداً، أرصد ذلك الطائر الذي غادرني

تحميه عيناي من يد غدر تقتنصه، أهمس: (أريدك طائراً يحلق عالياً، لا يستطيع قمعه جلاد) تهمس: (اقتربي) .

ما بين الصحو والحلم تكمن حقيقة لا أستطيع تجاهلها، لقد تسللتَ تحت جلدي بخفة لص محترف، احتللت سهولي وجبالي، ورفعت راية الحرب في منارتي، وأدخلتني الفصول المتقلبة، أدخلتني زمن الهزائم.

تدخل الفصول الماطرة .. مثلجاً،

فتسود العتمة ويهدأ الضجيج .

تدخل علقة تتشبث بالخلايا، موجعة حارة، فتندفع الأشواك الصلبة نحو السماء مرتعشة يغسلها الدمع، تغرز رمحك البارد في أحشائي فتتدفق الدماء حارة لزجة، تنبعث منها رائحة استسلام مهين. في الغابة يسود قانون القوة، في المدن يصفعني قانون أعنف، في خارطتي يرتفع العلم الأبيض معلناً الاستسلام . أكنتُ حقّاً حديقة زهور تبحث عن فنجان القهوة الصباحي فاغتالتها يد العشق؟ أكنت سيّدة الندى؟

سيّدة الندى متعبة ومثقلة بالحزن، الوهج الذي ناداك لترشف السواد الغارق في القهوة انطفأ، دائماً تقودك خطواتك نحو الأماكن المظلمة والأحلام المستحيلة، دائماً يرافقك الدمع فتبتل الوسادة، لكنك لا تتنازل عن اندفاعك واجتياحك للأشياء كبركان. أهي الحرب الّتي اجتاحتك كإعصار فطبعتك بغموضها؟ أهو الحصار طال أعصابك فاندفعتَ نحو البحر الذي تخشاه وأغرقتَ نفسك؟

كعادتك تجلس في الركن متقوقعاً على حزنك متمسكاً بعنادك الذي جعلني أعي بمرارة معنى الوحدة، وترك أصابعي تتوقف عن نسج خيوط العنكبوت الواهية. أشرب قهوتي مع زهور الجاردينيا، القهوة

السوداء تزيد الزهور بياضاً، القهوة السوداء تزيد قلبي توهجاً. سيغلق القلب أبوابه أمام الغد، ستنام الفرحة نوما أبدياً، وتبحر الأحلام إلى جزر الصمت، ويسود الخراب. طيوري الجارحة غفت على قشها، لعقت آثار الدماء المسفوحة على أعتاب ذاكرتي، وتثاءبت. الغد لن يأتي، فهل أقول وداعاً يا من فتحت الجرح بهمجية وتركته ينزف حتّى الموت؟ وداعا أيّها المتقلب على جمر روحي، الغافل عن مفاتيح دنياي، وداعاً لروحي، وشرفتي وياسميني، و لكلّ ما كتبته لك، لتلك الريح الّتي أردتها أن تقف أمام عواصفك بصلابة في مواجهة عنيفة لذاتها.

ماذا تريد مني؟ أيّها الرجل الذي يوزع روحه على شرفات الزمن ويقهر نبضي؟ أهناك ما يقال بعد التصاقك بجلدي، وتشبثك بدمي وأنفاسي؟ كيف تريدني أن ألملم الياسمين الذابل من شرفات الآخرين؟ كيف بعد أن اقتحمتَ حلمي ونبشت أسراري، ونسفت حياتي كإصبع ديناميت؟ ما أزال أنتفض غضباً، ورفضاً، وعشقاً، وأشياء أخرى!

القلب متعب، اطرد غمامات البرد واسترح فوق جمري. الجسد استهلكته رحلة الموت الطويلة، اطرق نوافذ الشوق، فأفتحها على مصراعيها، تمدد في شراييني، انطلق إلى حيث أريدك نبتة متوحشة تتمدد في أوردتي.

كلّ صباح

أنهض من رمادي إليك.

هو القلب، أحياناً يقود خطواتي بجنون نحو الهاوية، هي الروح، تشفّ لتكسر ما دونها. هي العواصف تكسر السفن وتغرق البحارة الأشداء فما بال الريح تهز بابي؟

أنهض إليك، تشتعل الغابات فيّ، يبحر الأخضر في عينيّ، تمتزج بعشبي أفقاً لا حدّ لاتساعه، تشرب ألوان المساء وتجرح صمت العتمة.

يصرخ المساء بقسوة، يمزق مؤامرة الصمت، يصرخ نبضي ممزقاً أعصابي، لماذا؟

يرد الصدى متموجاً عبر السهول، مخترقاً الليل أمامي، يرد أحلامي إلى نحرها، ويعيد تموز إلى العالم الأسفل. تتراكم العتمة، تراكم الأوجاع في صدري، تئد ارتعاشي، أصابعي المثلجة تخون اتزاني، يرعشها رفيف أجنحة لطائر يروح ويجيء أمام نافذتها عارضاً عليها صداقة المناقير الصغيرة، فهل تقبل عرضه ذاك؟ العصافير المهاجرة محكومة بالموت عشقاً، فأيّ مصير ينتظرك على أعتاب الخريف يا قلبي؟ كنتَ تنبش الطرقات بحثاً عن ظل أمسية مرت، كنتَ أيّها القلب تبحث عن عشق لا تلمسه الأصابع، هلامي الشكل لا تراه العيون، يتسرب كدخان سيجارة تلفظ أنفاسها الأخيرة، أيّها القتيل والقاتل، توقف عن نزفك، لملم جراحك، وادخل مغارة النسيان.

أنهض من رمادي إليك.

من جديد، تطوف قهوتي متدفقة فوق حافة شفتيك، تشربها، وأرشفك، لهيباً، نزقاً، وأصابع مرتعشة . أدسك قريباً من خفقات القلب فتشتعل الغابات بالحرائق، لن أهرب إلى معبدي، لن أرتل أناشيد الغفران. أقتربُ من عمق النّار، وهجها يلسع أصابعي، يتدفق الدمع حاراً من عينيّ. دهر مرّ وأنا أتقوقع حول نفسي، أشرنق الوحدة، وأنسج منها ملابس لأطفال سيأتون وينثرون الدفء في قلبي.

((غني لي)) فوجئت بطلبك، رفعت حاجبيّ دهشة، لكنّي لا أملك صوتاً جميلاً .

ـ غني، وسترين جماله، سترين كيف يهزم العتمة، ويبعد شبح الخوف.

خرج صوتي مرتعداً، متحشرجاً من قعر مهجور، تعثر بحنجرتي، ثم تماسك قليلاً، ووجدته ينطلق بأغنية فيروزية، رجعت في المساء.. وبدأت أوتاره تشتدّ ونبراته ترتفع. أعلن حبي لك، واتحادي بحزن عينيك.. وينزل المساء.

ضممتني إليك بقوة، التحمتُ بك ضدّ القهر والألم، ورأيت يديك تمتدان إليّ جزيرة فرح، أرخبيل شهوة وعناقيد أمنيات. وينزل المساء معلناً اتحادي بحزن عينيك تحت خيمة الليل وبوح المطر. خطواتك المنتظمة على الرصيف يرافقها نشاز وتعثر من خطواتي القلقة. كلانا تغيّر، كلانا دخل عالماً مختلفاً، وكلانا يعرف ماذا يريد، برغم ذلك يدك تحضن كفي، برغم ذلك تنتشلنا صبرا مجدداً من تساؤلاتنا وأحلامنا المتناقضة وشجاراتنا.وبرغم الانكسارات والهزائم أغفو على السرير الضيّق وأنا أرقب ملامحك المحايدة بمزيد من الهدوء .

استيقظتُ عصراً.

كنتَ في المطبخ، يصلني صوتك دافئاً يترنم بلحن مبهم الكلمات، الصحون تصدر أصواتاً متناسقة ، ويطلّ وجهك من الباب:

ـ منذ متى لم تنامي ؟ ظننتك لن تفيقي أبداً.

وغرقتَ في ضحكة صافية، جرسها كان غريباً على أذني! صفاؤها لمع كنصل سكين حادة أمام عينيّ، إذاً النهاية وشيكة ؟!

مع اللقيمات الصغيرة كنت أحتاج مزيداً من الماء، والشهيق. شعرت بالاختناق، الدمع ينفر كغزالة شاردة من عيني، تدق يدك ظهري، يدخل الهواء رئتي، مُحمّلاً بعبير أصابعك. تمدد في فقرات الظهر، تمطّى في أحشائي، لسع وهجه وجهي فغرق بحمرة قانية،

كنت أحسّ بشفتيك قريبتين من أوردتي، تسربتا مع الدم بهدوء، قررتا اغتيالي.

فرحٌ ضج في العروق، سحب ألقه للعينين الناعستين، طرد أرقي إلى هاوية بعيدة، ووجدت نفسي أشرب رحيق فراشاتك المنتشرة على امتداد جرح، وعلى امتداد أرقِ صباحٍ كان يعدني بالشروق، فتحت عينيّ على شيء يتكسر في جسدي وروحي، لم تعاتبك عيناي، للمت بقاياي ونهضت. لم يرافق نهوضي ألق الآلهة، بل رافقني السقوط وارتطمتْ روحي ببقايا جسد محطم. تلاشت الأغنية، طوال الليل أعلنت اتحادي بحزن عينيك، وأشرق الصباح مطيحاً بحكايات شهرزاد في حاوية القمامة.

على الشاطئ لم أكن أسعد حالاً، كنت أدرك أنّ ما بيننا شرخته ليلة أمس فتوحدنا بصمتنا، لم يعد هناك ما يقال، الموقف أكبر من كلمات أتفوه بها، ما الذي تصغي إليه الآن؟ صوت الأمواج أم أنين بحري؟ هناك من يناديك، كانت يدك تمتد في صمت العتمة لتلمس الجدار، نطقت باسم مبهم، خرجتْ الحروف طعنات موجهة ساخنة أصابت هدفها بسهولة.

بطرف عينك كنت ترصد انفعالي.. صمتك الرهيب ذاك زاد الهوة اتساعاً. في المقهى لم تفلح كلماتك عن الطقس والحرب في الجنوب والأخبار العامة في سلخي عن صمتي.

في الشارع المنحدر نحو الباب الخشبي وأمتعتي، كنت أرجو أن تمدّ يدك لإيقاف نزفي بكلمة، (كل ما كان مجرد حلم، وأنتِ الحقيقة الوحيدة). لكنّنا واصلنا انحدارنا نحو أفق مظلم، ودلفنا الغرفة البائسة واستلقينا على أوجاعنا.

لم أستطع أن أفهم معنى لوجود الطعام على المائدة ولا لتدفق بخار الشاي الساخن حول ارتعاش شفتيك، شيء واحد أعادني للحياة، أصابعك تضغط رقبتي، عيناك تحدّقان في عينيّ وكلمات أتصورها منقذة من ورطة كانت!

في المساء قدّمتَ لي وردة، شبكتها على شعري، وأرحت رأسي على صدرك، انسللتُ بأمان تحت جلدك، اختبأتُ في طيّات القميص، لامستُ بحنان موضع الجرح وغفونا.

الصباح الأخير كان ينذرني بشؤم قادم.

قبل أن أصل دمشق رأيتك في إغفاءة قصيرة متشحاً بثوب أبيض وطيور كثيرة تنقضُّ على بقعة حمراء قريباً من القلب، صحوتُ فزعة، ولاحت أنوار المدينة الصاحية من بعيد...

فينيق آخر

1

أرقب حقيبتي بخوف وتردد، أأفتحها؟ ماذا يحوي ذلك الملف الباهت الخضرة ؟ ارتعشت يدي، تحسسته بأناملي، لقد وضعتَ فيه أمساً لم تبح لي بتفاصيله، أعرف أنّه الوجع الذي توارى وراء ترددك و...

فتحت الملف، طالعتني عبارة كالسهم اخترقت قلبي (سلامة الجليل)، تحته كانت تلك الحروف النارية لأمل دنقل:

لا تحلموا بعالم سعيد

فبعد كلّ قيصر يموت

قيصر جديد

أغلقت الملف على دقات قلبي و ارتعاش الروح، لم أكن أقوى على الاستمرار في القراءة، استلقيتُ على السرير. الإجازة الإجبارية من العمل أعطتني فرصة للتنازل عن الترف اليومي، والركض سعياً في الشوارع الرمادية الغاصّة بأجساد صنعتْ من السيراميك الملون، أحياناً

أفكّر في مادة الجبس تلك، فأجدها تغلّف روحي قناعاً بارداً يرسم ملامحي بدقة، وحين تتعثر أصابعي بوجودك وترتطم روحي بالتصاقك بأوردتي، أجد الأقنعة الباردة تتهاوى في العتمة، وتنفجر براكين توق و نقمة، وأستغرب من تلك التي تسكنني، أهي أنا؟

الملف يدعوني لوجبة رعب شهية، أتقاسم فيها ليلتي مع أشباح كئيبة. أحدّق فيه. أصابعي تحسم الموقف وتفتح الصفحات مقررة: لن يحدث أسوأ من تخليك عني! ترتجف الصفحات تحت وقع رعشة اليد المتفحصة وتبدأ حوارها المفزع معي.

أوراقك طريقي إلى جسر نسفته المسافات فلم يعد آمنا، أعود إليها لأجترّ وجعي.

2

عين الحلوة ..

حلّقت الطائرات على ارتفاع قريب، تلوّنت السماء بالمناشير، تهتف بنا: (اخلوا المكان خلال ساعتين). تراكض الأطفال في الشوارع، وخفت النسوة يحملن أمتعة بسيطة ويتراكضن مع الصغار نحو الجامع طلباً للنفق، طلبا للنجاة...

إلى السلاح، نادى الرجال الذين آثروا المقاومة، أيديهم تقبض على النبض بقوة. توزعوا على الأسطح في حارات المخيّم، وفي المخابئ. خلال ساعتين كان المخيّم يشتعل بالترقب والهدوء الذي سبق عاصفة القذائف واندلاع النيران. قافلة الهاربين تلقتها الرصاصات التي تعرف الهدف، استلقت على طول الطريق، روائح الجثث بدأتْ تنشر جوّاً

من الخوف والقلق، الحرُّ يهاجم الحلوق، الرعب يقطن القلوب، والانتظار تمرّ دقائقه ناقوساً يعلن بدقات رتيبة أنّ النهاية قادمة. لم تكن النهاية بعيدة رغم اكتظاظ النفق بالأجساد المنهكة، لم تكن بعيدة رغم الإيمان الثابت أنّ الله قريب يطلّ عليهم من مئذنة الجامع، يرى الأهوال الّتي عانوها فيدخل الطمأنينة إلى قلوبهم الّتي تنتظر، نام الصغار بأحضان أمهاتهم، اتكأ العجائز على الجدران الرطبة في إغفاءة قصيرة، أصوات القصف لم تكن تمنعهم من النوم، ولم تدخل الضعف إلى نفوسهم، كانوا يلتمسون صوت الآذان، همهمات دافئة مطمئنة تصدر عن المئذنة، سمعها الجميع، العدد الضخم الذي تجاوز السبعمائة شخص في النفق، لم يمنع لحظات الطمأنينة الباردة من التسرب كسيل هادئ من أعلى المئذنة، طفل رضيع فتح عينيه فجأة، نظر إلى أمه، حملته إلى صدرها، قرّبته من مجرى الحليب الدافئ، التقم ثديها وأغمض عينيه، كانت الإغفاءة الأخيرة! القصف لم يتوقف، لكنّ الأجساد الطرية الملتحمة داخل النفق، همدت إلى الأبد، ارتعشت المئذنة، تهاوى الجامع، وساد الهدوء.

في البيّارات، على الأسطح، في الحارات، كانوا يقذفون إيمانهم بكلّ قوتهم في وجه الطائرات المعادية، يتلقون الرصاص بابتسامة تحملهم إلى السماء، ويتابع الباقون، يرشقون رصاصهم، بندقية بمواجهة مجنزرة، كلاشينكوف مقابل دبابة، فدائي مقابل جيش! ولكنّهم يمضون في تزاحمهم، سباق لاهث من سيصل أولا إلى هناك!؟

يستمرّ القصف، تتلاشى المقاومة، يتقدم الجنود المنتصرون نحو المخيّم، يخيّم الهدوء، جميعهم وصلوا إلى حيث كانوا يتسابقون، لم يعثروا على أحد، جرّوا الجرحى أسرى.

كنسوا الركام بفولاذ جرّافاتهم، كنسوا الجثث، كوّموها في الساحة الشاسعة قرب الأسلاك الشائكة، استقرّت ناشرة رائحة الموت الرهيبة.

انقشع غبار القصف، تبدى المكان عارياً من الأبنية، خاوياً من الحياة، جثث متحركة تكنس البقايا، تنبش الركام بحثاً عما يصلح للاستخدام، أبعدوهم واشتعلت الحرائق، انتشرت رائحة اللحم البشري المحروق، أمسكت النسوة الهلعات قلوبهن خشية السقوط، (ليس للموت حرمة)، صرخت إحداهن، صرخةً موجعة، استقرّت في هاوية بعيدة.

تجاه الشاطئ والبيّارات نزح من بقي.

صوب البحر كانت الآمال تعبر الأفق لترى عكا، وحيفا. على طول الشاطئ، احتضن المنفيون للمرّة الثانية آلامهم، وبقي حنظلة ثابتاً هناك، يدير وجهه جهة المخيّم، لا أحد يمكنه فك شيفرة نظرته، لأنّه ببساطة لا يراها، لا أحد يمكنه فك عقدة الذراع لأنّه يرفض حمل القلم! كان حنظلة يرقب النسوة يعمرّن بسواعد الحاجة أعشاش العصافير.

هناك رأيته، منذ زمن لم نلتقِ، صافحتني عيناه بحزن دون أن ينهض عن صرّة ملابسه، زاده لرحيل جديد. جيرة امتدت زمنا قصيراً، وتاريخ مشترك من الألم والتشرد، عاد إلى نقطة البداية، عاد لاجترار ذكرياته على مسمعي: ((سنة يرقب حضورها المفجع في ذاكرته. حدّثني مطولاً عن ذكرياته هناك، السفن المزدحمة، الأطفال الذين أصبحوا رجالاً في أيام، النسوة اللواتي حملن رعبهن صليباً، وهو يخطو نحو المجهول، نظراته تودع ذرات الرمل، الشوارع، الأبنية، الأشجار، ودفء الأمسيات، لم يبق منهم أحد!

كم حلم بعائلة وحبيبة، كم احتضنت كفاه وجه أمه الذي لا يفارق الحلم، كم بكى على ذراعيها متأملاً الدالية وفنجان القهوة الصباحي، وأمسه الذي لم يعد منه سوى ذكريات باهتة يشكّ أحياناً أنّها حقيقة، قالت له: سنتزوج قريباً، قال لها: سيجمعنا بيت أهلي الصغير، سيكبر الأولاد، سيحملون معي عرق الأرض، لكنّه لم يكن يظن يوماً أنّهم سيولدون في خيمة، و ينشؤون تحت رحمة الذكرى الّتي لا تفارق مخيلاتهم الصغيرة، في كلّ زاوية هناك من يذكّرهم بنشأتهم. لم يبتعد البحر كثيراً، يسبحون فيه، يخوضون معاركهم مع الموج ويتجهون بعد أن تشتدّ سواعدهم إلى الجنوب. من جديد وجد نفسه تحت خيمة، عاد الزمن به إلى اليوم الذي جاء فيه مجتازاً البحر إلى هنا، كأنّ الزمن لم يتحرك، كأنّ الأشياء تعيد دورة تكوينها من جديد. وحيداً، لا أسرة، لا زوجة، لا أولاد، في مواجهة البحر والتشرد، وطيف عكا حيث كان يوماً. ها هم الصليبيون يجتاحونها، هل يتحسر على زمن صلاح الدين، يبكي قدراً يلاحقه بهزائم لا تنتهي!؟) إلى جانبه كانت مريم جارتي القديمة جالسة بصمت، تتأمل الصليب المطروح على صدرها وترنو إلى البحر، ترفع رأسها إلى السماء ضارعة للرب الذي في السماء، تتمتم شفتاها كلمات مبهمة، تقبّل الصليب وتتقوقع على جراحها. ستة وثلاثون عاما مرّت في عين الحلوة، وها هي ذي تعود إلى الخيمة! من جديد تبتعد حيفا، يبتعد بيت أبيها، ابتسامة أمها، وترجع وحيدة، قدّاسها الخاص لهذه الليلة الحارّة لن يعرفه أحدهم، تتطلع إلى الوجوه حولها، تنقّب داخلها المعتم، يتساوى هؤلاء في حجم الفجيعة، لفظتهم السماء ولم تسعهم الأرض.))

وغير بعيد عن رتل المنتظرين نزوح آخر، كانت فاطمة... آخر من تبقى من جيراني.

((خلف الجدار المهدم تخبئ صغارها، الرضيع الذي لم تستطع الحصول على حليب له، يذبل وتزحف الصفرة إلى خلايا جلده، الأطفال كومة من القهر، يلتمسون الأمان من التصاقهم ببعضهم، وهي تنقّب في الوجوه بحثاً عن معيل، أين الرجال؟ في زمن الفقد تبدأ أهمية السند تبرز بحدة، هي كدجاجة ذبيحة تبحث في الركام عن حبات قمح تسدّ جوع صغارها، الجسد الفتي لم يصلح لإخفاء شبح الموت البادي في العيون المنتظرة يوماً قادماً لا ترى وجه السماء فيه أثناء استلقائها، بل سقفاً يقيها الحر والبرد هي وصغارها، كيف تحصل على الحليب؟ هل يحمل الركام حليباً للرضيع؟!)).

هؤلاء ما تبقى من الحي الذي عشتُ فيه!

سحاب صديقتي، تمتطي الحزن مسافرة إلى قلب المأساة بإصرار على التفوق عليه..

((لم يبق من أطفال كانت تداعب رؤوسهم الصغيرة بأصابعها وترسم الابتسامات على وجوههم وهي تعلّمهم أبجدية حبّ الوطن، سوى ملامح شوّهتها الحرب وقضى الجوع على ألقها، لم يبق منهم سوى ذكرى أخيرة للرعب وهي ترافقهم في الحافلة، أغانيهم العذبة ترتفع إلى السماء متحدية، لكن حقدهم الذي نفثوه قذائفَ حارقة أخرست الأغاني وتركت الأجساد الصغيرة لملائكة بيضاء الأجنحة لتحملها بعيداً، لم ترَ يومها ما حلّ بهم، كانت الحمائم تغطي المكان، والبيّارات الخضراء تلمع تحت الشمس الحارقة، الدُّوَار أخذها في غيبوبة طويلة.. لم يتبق من البيوت الّتي كانت تتمشى في ظلّ جدرانها اتقاء الحرّ القاسي ريثما تصل بيتها؛ سوى ركام وجدران

مشوّهة، لم يتبق من الأمس الذي عاشته وأحبته سوى ذكرى ساخنة لاذعة.

تنظر إلى البحر، تنهض فجأة من جلستها المستكينة، تهبُّ قامتها كرمح وسط الخراب، تسير صوب المخيّم، تستعرض بقايا الجدران، تمسح الشعارات المكتوبة عليها بنظرة لامبالية، تبتسم لتلك العبارات الّتي حملت ملامح أصحابها من الفصائل المتعددة، (إنّنا مع كلّ الشعوب المحبة للحرية في العالم، الناصرية ثورة مستمرة، تعيش فتح، نعم لصدام حسين)، تخلّف الشعارات الباهتة وراءها لتنام هانئة، صوب صيدا توجهت نظرتها، تأملت تمثال عذراء مغدوشة، العذراء غارقة في سحب الدخان، الأفق الداكن يمثل حجم المأساة وفظاعة الحرب. شقّت عنان السماء رشقات الرصاص، تراكض النّاس يلتمسون سلامتهم، بقيت مكانها،الصفارات تعوي منذرة بغارة قادمة، ثبتت قدميها في الأرض وصوّبت قلبها نحو السماء، صفاراتهم الاستفزازية كعادتها كانت تشعل الرعب وتنسحب من الوهم الذي أشاعته بحرفةٍ من صَنَعَ الحربِ وكان أداة بيد العدو يبطش بها بأبناء جلدتهم. مرّت سيّاراتهم قريباً، تجاوزوا الشاطئ وهم يقهقهون، لم يكونوا يداً للعدو فقط، بل بوق رعبهم وقذائفهم الّتي تنصبُّ حارقةً كلّ شيء، لحقت نظراتها بالعذراء الناهضة من الرماد ..

حين حدّثتني عن ذلك كانت على يقين أنّ الشمس ستشق حجب الدخان الأسود، وستشرق محمّلة بندى صباح قادم، سحاب كانت تعرف موضع قدميها دائماً، وتعرف أنّ عشها في عين الحلوة لن تطيّره ريح مهما بلغت قسوتها.

.....

الراديو رفيقٌ لا بدّ منه في أجواء الحرب، أستمد منه أحياناً بعض القوة، وأحياناً يدفعني لليأس والانهيار. في هذا اليوم زرع ظلال ابتسامة على شفتي.

الصهاينة يعلنون التزامهم بوقف إطلاق النّار على القوات السورية دون أن يشمل ذلك منظمة التحرير! دمشق تعلن الموافقة على وقف إطلاق النّار على أساس الانسحاب الشامل من الأراضي اللبنانية!

اتسعت الابتسامة قليلاً لتأخذ معنىً مختلفاً حين سمعت اليوم بمصرع الجنرال يكوتئيل آدم الرجل الثاني في رئاسة الأركان ومدير المخابرات الإسرائيلية، ومصرع الكولونيل حاييم قائد وحدة استطلاع في الدامور.

.....

(لن أستطيع اليوم التحدث عما جرى!)

.....

.....

.....

صفحات فارغة لا تحمل إلا التاريخ، ماذا حدث في ذلك اليوم؟ توقفت أسرّح نظري مراقبة الشمس تسعى إلى مصيرها الأبدي، وتلك الظلال التّي تركتها على الأرصفة. قلبي قال لي في هذا اليوم حدث شيء هام جداً، لم تستطع لهوله أن تسجل أحداثه، ما هو يا ترى؟

كلماتك حاضرةٌ بجلال سوادها، مزينة برسوم قد تبدو مضحكة بمعزل عن الكلمات! تحاول سرقة ملامح حنظلة ونظرته الغامضة المأساوية للأشياء.

.....

.....

نحن نلامس قشرة حزنك يا بيروت،

فمن يكتوي بجمرها ؟

إلى من نوجه رصاصنا ؟

الخامس من حزيران ! تاريخٌ يشهر عجز الإنسان العربي رصاصاً، بأيّ اتجاه يُطلق ؟

رصاص القمع صوب الحرية ..

رصاص الاحتجاج نحو الصدر الخافق بالحبّ والتشبث بقيم لم يعد لها وجود.

.....

رصاص سرحان بشارة سرحان في الخامس من حزيران 68، أخذ الطريق الصحيح، عرف العدو واتجه إلى صدره، رصاصاته الّتي استقرّت في صدر روبرت كنيدي مرشح الرئاسة الأمريكي، الذي تبجح بقوله :(إنّ إسرائيل هي شعلة الحضارة الغربية في أرض الأنبياء، على الولايات المتحدة أن تدعمها ليزداد هذا التوهج الحضاري!).رصاصٌ انتقم لأمة غافلة؟

.....

.....

هبّت بيروت للدفاع عن وجودها فهل تبقى على الحياد؟ لقد زُجت في حرب كان الوجود الفلسطيني أحد أسبابها، وأنا؟ ماذا أفعل هنا ؟ ماذا أفعل للحبيبة الّتي تنشقتُ عطر الحياة في أحضانها، وجثوت على رمالها أذرف عجزي دمعاً، وألمي دماً ؟

الجمعة ! ذلك اليوم الرهيب من حزيران الأشد سواداً، ما زال يخيّم بقتامته على قلبي وأنا أندفع بوعيي للمجهول الذي يحمل في طياته رصاصة غدر تعرف هدفها، وتتقن الوصول إليه، الركض المذعور

في الشوارع يرسل الخوف دخاناً، أبخرة البحر تتصاعد، تنافسها أبخرة الأنفاس المصلوبة على مذبح الوقت، جسدي يرسل بخاره براكين غضب، وأصابعي تلامس الرصاصة تلو الأخرى بارتعاش عاشق صدمته حبيبة قاسية.

الطائرات تحلّق قريباً مني، تلقي حمولتها جبالاً من الحقد، الشظايا تطال الأجساد المهرولة بحثاً عن الأمان، هرباً من الموت.

في الطرف الآخر رأيتها تعبر الشارع، وصلت الرصيف تجرّ طفلها، كادت قدماها تتجاوزان عتبة المبنى، الطائرات تقترب أكثر، على الرصيف كانت تحتضن بقايا أشلائه، انحنت شجرة عملاقة بأغصانها المتكسرة حاضنة الأعضاء المتناثرة، واختفى المشهد عن ناظري.

الطلعة التاسعة للطيران، رأيته يفرّ من جحيم البيت المنهار، توسط الشارع، نظر إلى السماء، ليس بإمكانه الاختباء، بقي جسده مزروعا في إسفلت الشارع، نحو السماء ارتفع بخار آخر!

زوارق قادمة من عمق الزرقة، يدفعها الموج إلى الشاطئ، محفوفة بعطش للدماء يسبقها جوعها، فرّت النوارس البيضاء من حتفها، غاصت سمكات القرش بعيداً، ارتعدت فرائصها خوفاً، عشرات الطيور بعثرت أجنحتها قذائف طائرة حارقة، نفثها طيّارها زفرات ضيق واستعجال.

كلّ شيء في هذا العالم المخيف يبعث في ذاكرتي حضور الحرب والخراب، كلّ شيء يدفعني بقسوة في الاتجاه ذاته!

.....

ندى

حدّقي جيداً، ستجدين في هذا الركام البشري، والخراب الجليل، طائراً يحمل سلامة الجليل شعاراً، يطوف بها فوق حراب القمع ونزف الاستسلام المهين، ها نحن مجدداً عراة في مواجهة الريح!

لم توقظني الشمس هذا الصباح، أيقظني انتظاري لهاتف يرعش القلب المسوّر بالقلق، يغتسل برقيق كلماتكِ فتخضرُّ تربتي، وتتفتح شقائق النعمان، ويمتدّ الأقحوان أبيض، مثير الرائحة. .....

كثيراً ما أفكر فيك تتألقين بحضور مفاجئ طالعة من عتمة المتوسط، لكنّ الليل ينجلي عن صورة فجر بعيد، لا أثر للامحك العذبة فيه.

النوارس الكئيبة تغادر شواطئي هذا الصباح، ترتفع في الأفق حاملة معها الحلم، هل تبعثينني فينيقاً من جديد؟

أتطلع إلى رسومي، ترفع هذيانها صوب عينيّ، أكنت أعتقل الحلم في أسرها ضمن مساحة الأبيض الممتد من المتوسط إلى قلبي؟ الحبر يزخ حجارته حيث يعتزل بابا نويل الأفق الرحب ويجلس حزيناً على أطفال لن يروه! كثيراً ما تأملت ذلك النزف الأسود المغمس بملوحة (الميت) وعذوبة موضع (الحمام)، لا خضرة تختصر عنب الخليل، لا ماء يجلب لي السعد وكلّهم يرحلون مخلّفين خيطاً أحمر من دم لم تصبغه حرارة الوجع بسوادها. دائماً أراه ينزف طريّاً، فاقعاً كزهرة رمان شهيّة، أأشتهي دم الشهداء ؟ أم هو اللون العاجز عن الإفصاح عن مدى عجزي أمامه! أفتقد الجمال، تلك الشفافية والبراءة التي ترتقي إلى الشجاعة والقوة في الفعل الإنساني، أراها خطاً رشيقاً على الورق بدون أقنعة اللون، بساطة الأسود والأبيض.

أرمي الجريدة،

أرمي أقداراً طائشة لا ترى أمامها، أرمي ماضياً لم يعد يعني لي شيئاً.

أنهض مجتازاً عتبة المقهى نحو البحر، أرفع نظري صوب الأفق، أغتسل بدفء مطمئن يرسله الموج بحضوره الأقوى. أصعد مرّة أخرى

صوب الكورنيش، خطواتي تنساب بإيقاع هادئ ترسله أعماقي بعد أن اتخذت القرار.

صوب المخيّم تسحبني رغبة ملحة في تأكيد القرار، أعبر الزقاق الضيّق، أتنشق رطوبة الجدران، أسمع تلك الأصوات الأليفة،الأصوات الصادرة عن حقيقة وجودي، أتأكد أنّي لم أخطئ باتخاذ القرار.

محاصر كجرذ في بالوعة الوطن، تتدفق القاذورات فوق رأسي تباعاً، الحكام المستريحون هناك في الأعلى يعون جيداً أنّي جرذ مقهور، ضعيف وخائف، ترتعد فرائصي لصوت الرصاص، رصاص ضحكاتهم الذي يخترق عظامي.

ليست الحرب، ليس الحصار، إنّها نهايتي الّتي تبرز بوضوح أمام عينيّ.

ارتميت على السرير الضيّق، ثانية فاجأني حضورك، إلى متى سأقاوم؟

أريدك أن تطردي نعاسي، أريدك أن ترهقيني، قليلاً من الجنون، هل يضيرك قليل من الجنون ؟ تسكرني عيناك، تحطم الجسور، تحرق المسافات، أريدك قهوة سوداء في مسائي الكئيب.

أنا قهوتك، حديقتك، أزهارك وعشبك، فيضي نهراً من حنان يتوق للالتحام بمصبه، امنحيني هدوء الزرقة لتهدأ زوبعتي، فيك شيء يكاد ينكسر كلّما ارتطم بروحي.

ندى..

رغبتي تخدش هدوء القرار، ينزف صديداً، ألعق شفتي، طعمها مر، قطرات الندى بعيدة المنال، هناك خلف واد وجبل، هناك، خلف حلم اختبأت، حين قلت لي: (أريدك دائماً، بيتاً وشرفة،

وابتسامة طفل صغير).ثرت وانتفضت كأنّك اتهمتني بخيانة قضيتي؟ ما الفرق بين حضور جسد يضج بالحياة، وروح تغمرني بود رائق ؟

ما زلت أراوح بين مد يدفعني إليك وجزر يسحبني إلى حيث يجب أن أكون.

3

كلّ محاولةٍ لتمشيط حقولي من ألغامكَ بحثاً عن الحب باءت بالفشل، ينفجر لغمك بي، أتعثر بأشلائي في اندفاعي نحو حدودك.

من جديد أجد نفسي على الطريق الّتي حفظت تفاصيلها عيناي.

من جديد تقفز روحي فرحاً ممزوجاً بالقلق والاضطراب، كيف ستستقبل الخبر؟ حاولت أن أغفو، أن أشكّل اللحظات القادمة، أتصوّر لقائي بك!

أين أجدك؟ شغلني السؤال طويلاً، مرّ دهر لم أسمع صوتك، حاولت استحضار تفاصيله، ارتعاشه، صفاء نبراته .. و ..

في ظلال كئيبة ارتميت والعرق ينضح من جبيني، صوت مذياع السيارة العالي يطرق جدار الرأس، تفزع أحلامي من غفوتها، تستنفر الخلايا بحثاً عن هواء، المكان يميل إلى الرطوبة، والظلام يخيّم على الأشياء.

صمت، الصمت المريع يقشعرُّ له جلدي، قدماي الحافيتان تطأان الظلّ الداكن لأوراق شجر غير مألوف، يضيق المكان، تتكاثف فروع الأغصان الصغيرة فوق رأسي، تقترب أكثر، أنحني اتقاء لأشواك برزت فجأة و أتابع السير وأنا ألهث، أتعثر بظلال لأشكال غريبة، أتلفت

حولي مذعورة، لا شيء غير الصمت، أستغرب، أهناك غابة بدون عصافير؟ حيوانات؟ حشرات؟لاشيء سوى الصمت!أغوص في بحيرة سوداء لزجة، أفتح فمي لأصرخ، يفاجئني الصمت، لا صوت، لا صدى، أضغط أذنيّ، أكرر، لا شيء يأتي من الداخل. البحيرة اللزجة تشدّني إلى الأسفل، أمدّ يداً عاجزة تطلب النجدة، عيناك تبرزان فوق فرع شجرة صغير تحدقان بنظرة جامدة، على شفتيك تلوح ظلال ابتسامة يرسمها خط رفيع من دم يسيل قريباً من ذقنك، أقبض على يدك لتنتشلني، تبقى بعيداً ويدك تتابع الغوص معي إلى قاع البحيرة، أشهق محاولة سحب الهواء إلى رئتي، الصمت وحده يبسم بتشف .

أفتح عينين متعبتين لأجد نفسي في كراج شتورا، أنزل وأتكئ على الرصيف، أعرف أنّ قرارك ابتعد بك عن طريقي، لكنّ رحلة البحث ستبدأ، لا مفرّ لي من البحث.

تعبت قدماي، الروح ترزح تحت وطأة أمانة ثقيلة، كلّ منا تحركه أيدٍ خفية تجيد الإمساك بخيوط اللعبة، تلك الخيوط الفضية اللامرئية، خيوط الحبّ القاتل الّتي قادتني إلى هاويتك، وضعتني في طريق لا نهاية له، غامض الملامح، ولأوّل مرّة أدرك أنّه قدري. هل أحمل مشروع شهيد آخر في أحشائي؟ أم سأدفع به إلى تيه جديد؟

مواكب جنائزية على طول الطريق إلى الجنوب، تحمل الرمز القتيل، اجتاحت رأسه بلطة بدائية الصنع، تجتز العنق الطري، وتتدفق الدماء، الدم أسود، كنتَ تكره اللون، وتلاحق الظلال بإصرار لجعلها تنطق بالأسود والأبيض.

أدخل النهايات المرة. تتضاءل الأمكنة، وينفر نوّار في اتجاه واحد!

شظايا الرماد

لم أتوقع أن يكون لقائي بها بؤرة النور لهدفٍ بقي غامضاً طوال سنوات! عانيت فيها من الوحدة والتشرد وقلة النوم وانحباس الدمع. توقفتْ سحاب عن الانهمار فوق سطح القلب الغارق بحياده، توقفتْ بعد مطر أعشبت به روحي بملايين القصص - ووجدت نفسي أصغر من نملة تدب على درب طويل سعياً وراء حبّة قمح تخزنها لشتاء طويل.

دخلتُ النهايات المرّة منذ زمن، وبات الجلد المنمش شاهداً على عجز قادم، مفسحاً للنظر تصوّرَ جمالٍ كان يقبع في الخلايا النشطة المعبّأة بالحبّ!

كنت أدرك أنّ طريقي إليكَ تمرُّ بعتبتها، ترددت كثيراً قبل أن اطرق بابها، شعرت ببعض الارتياح حين لم أجدها، وتوقفت عن البحث.

العمل بتفاصيله المرهقة وروتينه القاتل أغرق الزمن في النسيان، فلم أعد أشعر بالأيام الّتي تسرع بتقلباتها عبر الفصول والسنوات إلى أن فاجأتني صورتها على صفحات الجرائد! ارتبكت الثواني، وتشابكت الساعات واختلّ زمني.

خرجتُ من مبنى المجلة الّتي أعمل فيها إلى بيتي وأنا أتعثر بظلال الأشياء وصدى أصوات انبثقت من ماض بعيد. رأيتك حينها، احتللت أرصفة الشوارع والأشجار، ودرجات البيت وجدرانه، تمددتَ على سريري سابقاً جسدي المنهك. ضحكتْ في عينيك آلاف النجوم، وهوت على قلبي بعنف! هل يعقل أن أرتعش لذكرى تلك اللحظات الحارة وكأنّها تسكن جسدي نابضة بالفرح من جديد؟

أنتفضُ محاولة نسف كلّ الذكريات الّتي احتلتني بغتة في غفلة من زمني. لم يكن أمامي حلٌ آخر، يجب أن أواجهها لأنساك!

إلى متى أحمل عنادي قناعاً يحميني من معرفة الحقيقة؟ صرختُ من شرفتي المنبوذة على سطح عال متحدية البحر الذي علت أمواجه قلعتي الملحية فذاب الغضب والمسافات والزمن، ووقفتَ أمامي كما رأيتك أوّل مرّة ! هل مازلت أحبك؟

كان يجب أن أعترف أنّ الحجاب السميك الذي غلّفتُ به قلبي ومشاعري، وكراهيتي المعلنة للارتباط برجل، كان ذريعة لحماية علاقتنا بعيداً عن العيون!

لم يكن طريقي إلى الجنوب محمّلاً بمتعة الاكتشاف، بل بتفاصيلَ زادت من كآبتي، وغمرتني بحذر مصحوب بالخوف، مع هذا لم أتراجع عن قراري (يجب أن أواجهها) ربّما لأجل الحقيقة، وربّما لأجل طفلي، وربّما لأنّ سحاب اقترفت أخيراً بطولتها الحقيقية محققة انتصارها للقضية بعملية فدائية في الجنوب أقلّ ما توصف به

أنّها معجزة، هاهي تثبت للعالم أنّها تملك إيماناً لا تستطيع قوة في الدنيا زحزحتها عنه.

استسلمُ لحرقة تكوي الحلق، وتبعث فيّ قناعة بجدوى الحياة. طوال السنوات الّتي مضت على فراقنا كنت أحسّك بعيداً عن النبض، تعشش في ذاكرةٍ بنت عنكبوت ضخمة جدرانها الواهية الهشة، وأحكمت خيوط الظلام نسيجها حول طاقة الأمل.

اضطربت يدي وأنا أسلّم عليها، صورة ضبابية برزت على سطح لقائنا المصنوع من صدفة عابرة (رأيتها تخرج من المقهى، ورأيتني أندفع خارجة من إطار الصورة! كنّا هناك ثلاثتنا، كلٌ منا غارق في مأزقه، انكساراته وتصوراته عن تلك العلاقة المريبة). هل مرّ زمن على ذلك؟

في هذا اللقاء، أثبتت لي سحاب أنّها صديقتك الوحيدة، وأنّي لم أكن سوى نزوة عابرة أشبعت رغبتك بامرأة حمقاء!

ناولتني سحاب رسائلك وهي تهمس بثقة:

ـ كنت أعرف أنّك ستزورينني، انتظرتك طويلاً، وقلتُ لا بدّ أن أراه، أين هو؟

المفاجأة عقدت لساني، كيف عرفتْ؟ لقد حاولت طوال إقامتي في بيروت إخفاء كلّ شيء يخصني عن أعين الفضوليين من زملائي وجيراني، تقوقعت حول نفسي، وأغلقت بابي على ذكريات مرّة أجترها في ساعات الوحدة والحزن، من أين لها أن تعرف؟ قرأتْ دهشتي، ربتت نظراتها على وجهي، ارتسمت شبه ابتسامة على شفتيها، قالت في لحظات الصمت كلّ شيء، تلك العنيفة الرقيقة، اجتاحتني كإعصار، لم تلمني، اكتفت بعتب صغير، كان قاسياً ومراً (هل أنا السبب في انهيار ما كان بيننا؟) طمأنتني:

ـ بإمكانك إعادته، أنا لم أخبره، ترددت كثيراً حين علمت، لم أرد وضعه في مأزق جديد، من حقّك أن تعرفي عنه كلّ شيء، ومن حقّه أن يرى ابنه.

اكتفت بتلك الكلمات وأدارت رأسها صوب الجدار، تكتم ألماً تجرأ على اختراق سمعي، فامتدت يدي تلمس يدها بتلقائية، همستُ باسمها مراراً لكنّها آثرت ألا أرى الألم على وجهها!

أمر الطبيب بإخراجي من الغرفة، ونُقلت على عجل إلى العناية المشددة. لم يطل الأمر، أشهر الطبيب عبارته الروتينية في وجهي وكأنّه يتلو أمراً عسكرياً:

ـ لقد انتهى كلّ شيء.

فشلت محاولاتي في تجاهل ذلك اللغم الذي أودعته سحاب في يدي معتقدة أنّه حقي! وما الفائدة من معرفة ما حصل؟ ماالفائدة؟

عشرات من فناجين القهوة، وعلب السجائر الفارغة تحيط بترددي وتزيد خفقات القلب اشتعالاً.

النّار تأكل أعصابي، أهو القلق من معرفة الحقيقة، حقيقة تركك لي، حقيقة الحبّ الذي لم يوجد إلاّ في خيالي (وهل تتوقعين أن تحتملي ما جاء في رسائله؟ لم يكتبها لكِ بل لها! لصديقته، لمن ربطه بها المصير، لم يكتب لقلبه الخافق في جسدكِ، كتب إليها، كتب عن همه، تشرده، قلقه حياته، ولم يفكّر أنّ بذرته قد نمت في جسدك وطرحت شجراً! لماذا تقرئين وجعه مادام كلّ شيء قد انتهى؟ ولماذا تقرئين وجعه مادام قد دخل عالم الشتات؟)

النّار تمدّ ألسنتها الجائعة لتلفح الجلد فأشعر بالحريق يمتدّ إلى قلبي. النّار شغلتني عن نفسي فوجدتك تتلوى داخلها حروفاً تتناثر

رماداً وشظايا سوداء انهمرت على ملابسي وشعري، ووجدتني أخطّ بها على كفي رسمك! أبيض وأسود، ويختفي اللون كما أردتَ دائماً.

♦♦♦

طويلاً حملتُ الحزن على سحاب في القلب، وفكّرت في استرجاعك تلبية لرغبتها، ورغبة طفل لا يمل السؤال عن أبيه الذي يريد أن يباهي الأولاد به!

لكنّ شيئاً أقوى مني أوثق أصابعي إلى الرفض، فقررت العمل في الجنوب حيث دفنتها، وتركتُ أخبار الفن والنساء والموضة التي شُغلت بها طوال السنوات الماضية من عملي في الصحافة.

مرّة ثانية أشعر بآدميتي وأهمية ما أقوم به، كيف ارتضيتُ لنفسي طوال تلك السنوات ذاك البيات الشتوي؟

♦♦♦

قذائف تنهمر.

طيران يشقّ عمق الزرقة

قنابل تتشظى على جانبي الطريق.. وخطواتي تسرع إلى مجهول..

بيت يتطاير نحو ثلاثين قدما في الجو، جسدي الضعيف يلجأ إلى ظلّ شجرة، أتابع الركض بين الشظية، والأخرى..

ارتفعت شمس نيسان عمودية في صدر السماء، يتطاير الحذر أمام ما أرى، داخل بقايا بناء مشتعل، في قاعة المؤتمرات للمركز الفيدجي، كانت كومة من الجثث المحترقة.. شقّ اللهيب طريقه عبر

السقف وحوصرت الأجساد في الفرن، جحيمٌ أين منه أفران الغاز؟ رائحة الشواء البشري تنتشر في الجوّ حادّة، مقززة، تغيم الدنيا أمامي وتتخاذل ساقاي.. يد جندي كان ينظر إلى جثة امرأة مطروحة عند قدميه بلامبالاة تلقفتني، قال ببساطة شقّت رأسي نصفين:

ـ اليهود يعلمون أنّنا هنا...!

قبل أيام من المذبحة قطع صاروخ رأس طفلة لم تتجاوز الثانية من عمرها، يومها ارتعشت يدي وهي تطلق (عودة) نحو معلمته. اليوم صباحاً قلبي كان ينبئني بكارثة، تركته لدى السيدة زينب قبل أن أغادر إلى عملي.. لم تنتظر عودتي..!

جندي فرنسي كان يرمي في كيس يحمله أذرعاً، وأصابع، وأقدام، وأشلاء، حمل نفاياته البشرية إلى مدخل المركز وهو يتمتم بغضب، عيناي تحدّقان، ونبضي يتسارع: أين هو؟

اندفع حشدٌ من النّاس إلى داخل المجمّع، وصلوا من القرى المجاورة، رفعوا البطانيات والشراشف عن جثث أمهاتهم وآبائهم وأبنائهم وهم يصرخون عالياً.. الله أكبر..

رجل يرفع حطام سنينه من بين الأنقاض قال لي بعجز:

ـ لو كنت قنبلة !

وقف جندي فيدجي وسط خضم الجثث.. ورفع جثة طفل مقطوع الرأس. ركضت وقلبي يهبط بين قدمي، اختطفت الجثة من يديه، هوا! ! لباسه المدرسي و... ماذا أيضاً؟ هل كان عودة في المدرسة؟ لم أستطع التفكير، ولم أعرف الجواب، ضممت الجثة بهدوء إلى صدري.. هدهدتها.. تساقطت دموعي، امتزجت بالدم، امتدت يدٌ اقتلعتني من جلستي، وأبعدتني عن المكان، قال الجندي بغضب لم أعرف تفسيره:

ـ كيف ستعرفينه أيّتها السيّدة؟ إنّه ممزق!

اتسعت حدقتي ببلاهة. لم أعد أرى الجندي ولا الطريق، ألن يعرفه قلبي؟ سرت خطوات. تابعت عيناي الجثث، هم راقدون بسلام تلفهم البطانيات والشراشف تحت صليب (الأمم المتحدة). هل كانوا في حماية العالم حقّاً؟

أمام البناء المحترق في مركز الكتيبة الفيدجية التابع للأمم المتحدة، حملت فتاة جثة بين ذراعيها. رجلٌ أشيب الشعر، عيناه تحدّقان فيها، وهي تهز الجثة، تبكي، تندب بحرقة مرددة الكلمة ذاتها.. أبي.. أب...

شيءٌ جعل القلب يتوقف، والجلد يقشعرّ، وغيوم سوداء أمطرت رماداً. الكلمة الطعنة ألقتني حيث..

أيّهما أبكي؟ ألمح عينيه جيداً، صارمتين، حزينتين، عاتبتين، أيّهما أبكي؟

تهاويت أرضاً، الحرقة في الحلق، وفقدان للشعور، كلّ ما أحسست به، داخلي يصرخ (عودة). الكلمات تموت على شفتيّ المتحجرتين، داخلي ينادي، أحشائي تتمزق، الكلمات تنتحر، تدفنها حنجرتي بعيداً. في الأعماق، بلاهة، وتبلد، يسري تنميل خفيف في ساقيّ، يتسرب إلى يديّ، ذراعيّ، القسم الأيسر من رأسي، أنشج بصمت، فجأة يهمد كلّ شيء.

الجندي في المقعد أمامي يروي باضطراب:

ـ حوالي الثانية بعد الظهر تعرّضت القاعدة للقصف، سقطت القذيفة الأولى على محيط المجمع قرب المدخل الرئيسي ودمرت بنايتين من النوع المسبق الصنع، القذائف قطعت خطوط الاتصال والكهرباء، واشتعلت المباني، لم نستطع أن نصدق أنّ قاعدتنا تتعرض

للهجوم، أشلاءً في كلّ مكان، تجمعتْ العائلات المشرّدة في ثمانية مواقع في القاعدة، دمر القصف ثلاثة مبان، كانت تؤوي 240 شخصاً، مسؤول في يونيفيل ضغط زر الاتصال السريع في جهاز الهاتف لديه وأبلغ الإسرائيليين حول الهجوم، مع ذلك تواصل القصف...!

بعد صمت قصير تابع الجندي:

ـ الخطر الحقيقي كان في مدافع الهاون.

عقّب مرافقه بتعاطف:

ـ أخطأ مسلمو قانا، كما أخطأ مسلمو البوسنة.

نعم هؤلاء الضحايا هم المخطئون لتواجدهم أمام النيران، في ملجأ قوات حفظ السلام!!

حلّقت الطائرات الحربية قريباً منا، بيوتٌ تتطاير وقذائف تترك حفراً عميقة في الطريق الّتي نسلكها، صحفي وجنود وبقايا أم ثكلى، في قفص حديدي قابل للصهر بكبسة زر من إحدى الطائرات، سيّارة تابعة للأمم المتحدة تنقلني بعيداً عن المجزرة، هل يعطيني ذلك الإحساس بالأمان؟

ألم يلجأ هؤلاء البسطاء الذين عشت بينهم قبل قصف قراهم إلى الأمم المتحدة ممثلة بمركزها هناك؟ ألم تحمل السيدة زينب ابني معها ظنّاً منها أنّها تحميه؟

لا... لا يمكن أن أنسى منظر جثتها المطروحة في العراء، ينظر إليها الجنود في استغراب لتلك البسمة الهادئة الّتي تعلو زعفران البشرة الجامدة، وعيناها مغمضتان بسلام..!

لا يمكن أن أنسى جسده الممزق.. لا.. نهر الدم الذي يجري من مطعم مجمّع الأمم المتحدة حيث تنحر الذبائح البشرية أضحيةً للعيد القادم!

التوقيت مثير للدهشة، عيد سيأتي، أضحيات بشرية بالمئات! هل تحققت نبوءة الأغنية الشعبية، واستخدم البشر أضحية للعيد الكبير؟

الطريق يغصّ بالسيّارات العائدة، إلى أين؟

الفرار كان أولاً من القرى إلى حيث يرفع العالم راية السلام في قانا.

الفرار الآن.. إلى أين؟

هل أجرؤ على ارتقاء عتبات الدفء في درجات بيتنا العتيق؟ هل أجرؤ على اقتحام الذهول في حجرة أمي المغلقة على برودة الموت؟ هل أستطيع أن ألفظ الدمع قهراً على كتف رشا من جديد؟

في طريقنا كانت هناك سفينتان حربيتان تطلقان النّار على السيّارات المدنية فوق جسر النّهر شمالي صيدا..!

سيّارة تابعة للأمم المتحدة، جنود تنطق بشرتهم الخرساء بالحياد، ودمع يستعصي على المقلة الجامدة، لم أعد أشعر بشيء، كلّ ما فيّ تحجر، أحاسيسي، ذكرياتي، و ملامحه غابت عن عينيّ تماماً، وكأنّ السنوات الّتي قضيتها في هذا التشرد لم تكن، لكنّه تشرد جديد أبدأه الآن، في صندوق سيّارة تعبر الدرب المليء بمخلفات القذائف إلى بيروت.

فهل أطفأت بيروت قنديلها؟

هل أخرج من رمادي إليك من جديد

الطريق يغصّ بالسيّارات العائدة، إلى أين؟

الفرار كان أولاً من القرى إلى حيث يرفع العالم راية السلام في قانا.

الفرار الآن.. إلى أين؟

هل أجرؤ على ارتقاء عتبات الدفء في درجات بيتنا العتيق؟ هل أجرؤ على اقتحام الذهول في حجرة أمي المغلقة على برودة الموت؟ هل أستطيع أن ألفظ الدمع قيراً على كتف رشا من جديد؟

في طريقنا كانت هناك سفينتان حربيتان تطلقان النّار على السيّارات المدنية فوق جسر النّهر شمالي صيدا..!

سيّارة تابعة للأمم المتحدة، جنود تنطق بشرتهم الخرساء بالحياد، ودمع يستعصي على المقلة الجامدة، لم أعد أشعر بشيء، كلّ ما فيّ تحجر، أحاسيسي، ذكرياتي، وملامحه غابت عن عينيّ تماماً، وكأنّ السنوات الّتي قضيتها في هذا التشرد لم تكن، لكنّه تشرد جديد أبدأه الآن، في صندوق سيّارة تعبر الدرب المليء بمخلفات القذائف إلى بيروت.

فهل أطفأت بيروت قنديلها؟

هل أخرج من رمادي إليك من جديد

تصميم الغلاف : ناظم حمدان

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ اللاذقية ـ ص. ب 1018 هاتف 422339